



الجمعية المصرية العامة للكتاب

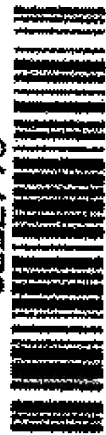


رساء وطيى

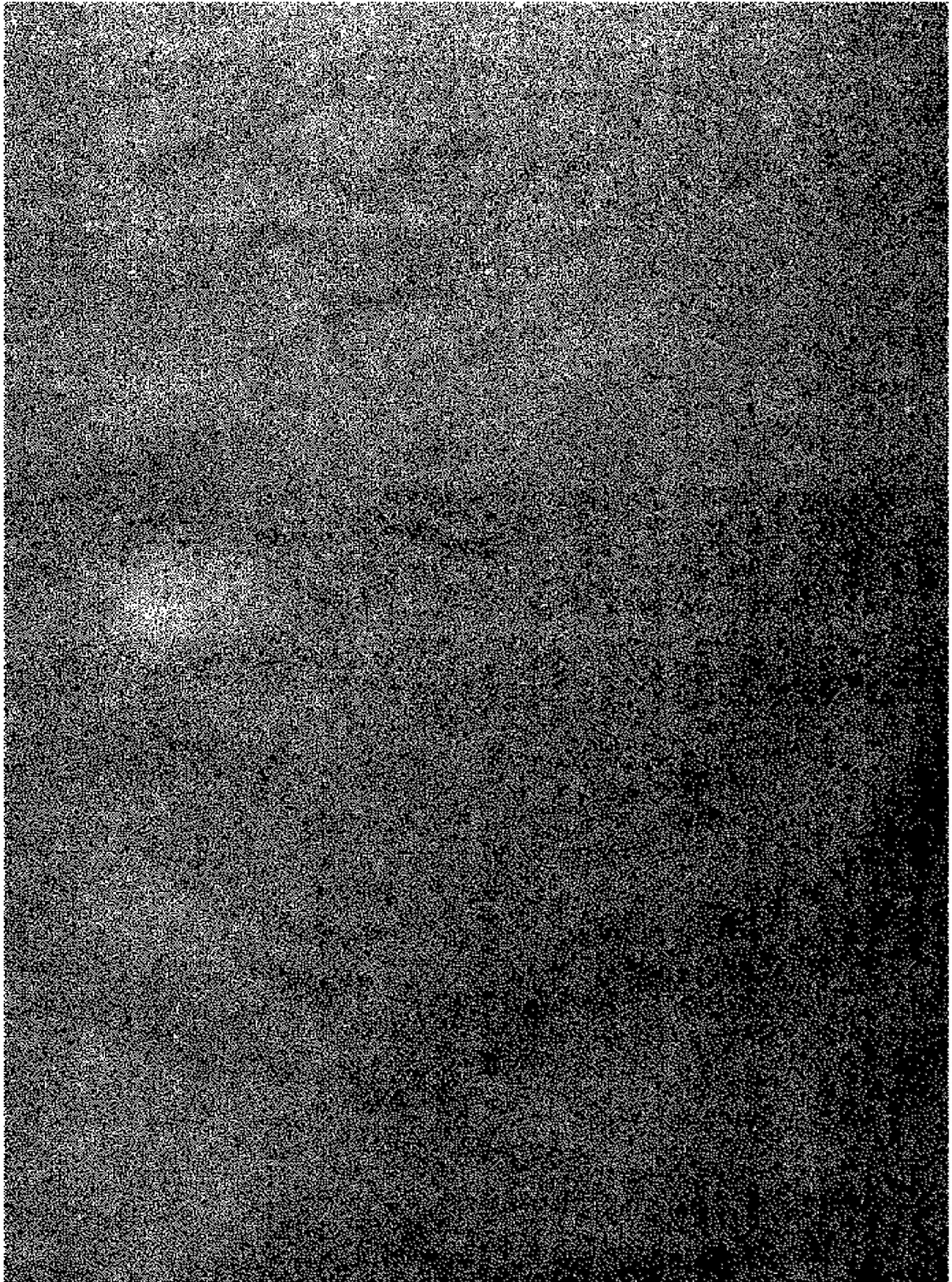
مع ثلاث قصص جديدة



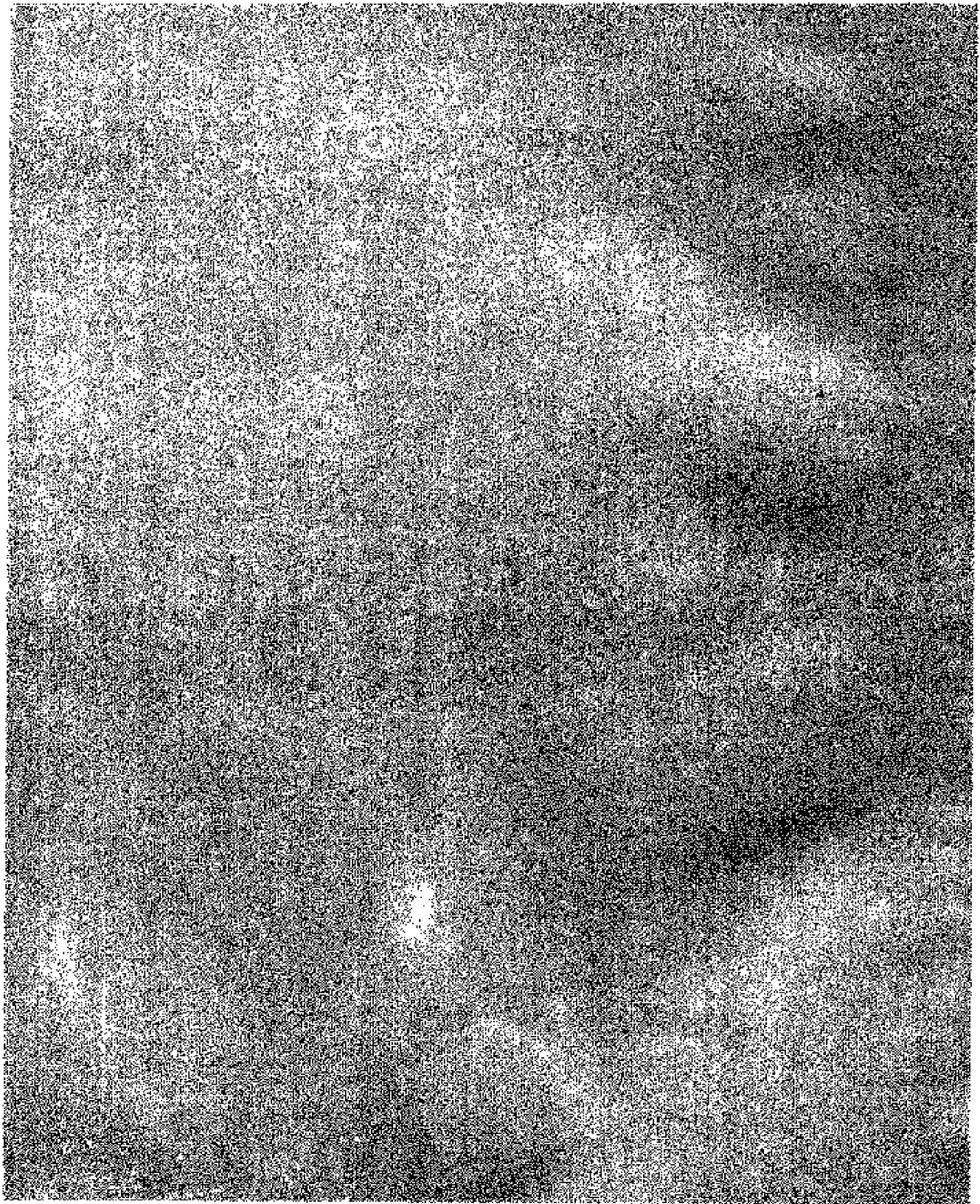
Bibliotheca Alexandrina



0147578



مؤلفات یحییٰ حق



مقدمة

لأزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ
فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يردد في أرجائها،
لانسعه إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :
عوف الله .. عوف الله ..

« يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند
الإغريق » فنعلم أن النيل قد وفى بوعده وفاض بالخير والبركات
على الوادى السعيد ، وتنبعث فينا نحن صبية المدينة — ولاشأن لنا بالزرع
والرى — هزة فرح لانعرف سببها، ونجرى إلى الجسور نحفل بهذا

الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء
وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، ويفتعلش الإحساس
الفطرى ، فإذا بنا - مع ذلك - كلما وقفنا على الجسور
وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسنا بأن أرواحا وقوى مهمة تهب علينا مع مياه
النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا - والليل قد مضى أكثره - على
عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة
العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة -
وجلهم من أبناء الصعيد - حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت
شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغاني
لهم يتذكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبائهم . وهم ساهرون رغم
تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ،
وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم - الحياض - كل عام ،
فيبطل العمل ، ويحلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم
الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك
الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقامة
العيش . . حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق ، تلهب إحساسهم
وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق
وجمال وفن أصيل

ومن تبل هؤلاء القوم أنهم في عز كفاحهم للحياة لا ينسون الغناء،
تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ،
وأبراج الحمام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات . والنيل عند
فيضانه يفصل القرى فتصبح كالحزير العائمة ، وواديه الضيق تحده
تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة

تحدثت أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة ،
فتتعبهم المهجاة السودانيون . . كما تحدثت عن حماسهم للأخذ بالشار ،
والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ،
وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى في تنقل وفراق . وتنشد هذه
المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين بلائم معانيها بساطة وحرارة
ولوعة .

ولا تخلو عربات الدرجة الثالثة في قطار الصعيد من طلبة تنأق لها
الأبلى حتى تستقر في يد خبير ولهان . فيخيل إليك أن الوادى كله
يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده ، وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ،
فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تنفى . . قد أصبح للصعايدة قطار —
أبو عجل حديد — يعرف باسمهم ويذكر في أغانيهم ، هو القطار الذى
يرح الإسكندرية في منتصف الليل ليلحق راكبه أول قطار يقوم
في الصباح المبكر من القاهرة للصعيد ، وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر
معه سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله في قلوب
الصعايدة إجلال أعما إجلال .

وهناك في قلب الصعيد النائي عند « البلينا » بلدة صغيرة يصل
إليها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هي بلدة
مزاته ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة
وتلك الراقصة . فلا تكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاته وناعسة .
فمزاته وناعسة رمز الوطن والأهل والأحباب وأيام الحنا .
وها هي بعض تنارات من الأغاني الصعيدية (١) ..

(١)

يا باجور الساعة اتناشر	يا مقبل ع الصعيد نارى يابوى
سلم لى ع الحبايب	ومحمد ولدى »
يا جريد النخل العالى	طاطى ورد السلام »
سلم لى ع الحبايب	آيا غايب لك زمان »
تحسبى اليوم نسيتك	دا البعد الى جفاك »
خايف أروح مسزاته	ناعسة تتقسل على »
ضمينى وأنا أضملك	ليل الشقا طويل »
شمس العصارى غابت	ياللى بلادك بعيد »
فرش الحمام على المياه	فرحسواله الصيادين »

(٢)

خاين يازمانى وديت حبيبى فمين
ولا جواب جانى شيعت له جواين

(١) هذه الأغاني من جمع سديقى الأستاذ محمد عصمت .

سوده وعاجبى	عيون حبيبى ياناس
نجم السما العالى	يشهد علينا الليل
ولا كان على بالى	يوم السفر يابنات
ياو مقام عالى	مرسى يابو العباس

(٣)

عدينى يا معسداوى	عدينى أنا
مد السقالة يا ريس	معرفش العوم ياغم أنا
عدينى أنا ومحبوبى	والأجره على أنا
محبوبى فى البر الثانى	عنده مونة سنه
قدام بيت اللى بحبه	شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته	حسود ع البلينا
تلقى بنات عبيد الله	ناصبين السلطنه
وعمار يابو حمادى	وزمان البلينا
باللى حبيت ولا طلتش	صعبان على أنا
ومسلم خالى السوابق	على أيه تنلرنى يا عمده أنا
ناعسة نزلت فى القارب	ما تنسم ساعة ياهوا

..

وأخيراً نورد تلك المقطوعة التى خلدها الدين جندتهم « السلطة »
العسكرية الإنجليزية بأنواع من القسر والجبروت فى الحرب العالمية الأولى
زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيد درويش يقدرها ويقول عنها :

«الطبيعة فوق الفن»، ويغنى منها البيتين المشهورين ويرددهما وهو
بيكى ، يرحمه الله

على يوم ما رغبونى	لم كان لى مرام
وعطونى الثلثايه	وقالوا لى كتبوك جمال
وانا كللى ما قول التوبه	ترمينى المقسادير
وعسد ومكتوب على	ومسطر ع الحبين
بابيه نخسبرينى	بماللى قتل ياسين
قتلوه السودانيه	من فوق ضهر الهجين
وبهيه فى الهماكم	شلت واحد وكيل
احكم بالعدل ياقاضى	قدامك مظالم
حوج الطربوش على شقه	حكم باربع سنين
سنتين فى السجن العالى	سنتين فى الزنازين

. . . .

وكان من حسن حظى أنى عشت فى صدر شبابي ستين فى
الصعيد ، فأنيح لى أن أطل على بعض أسرار ه . ثم تغربت عن مصر
وكان خليفاً بى أن يشغلنى البلديد عن القديم ، ولكنى وجدت نفسى
أجتر على مهل ذكرياتى عن الصعيد، كأننى لم أفارقه . وأنت لا ترى
الشىء حق رؤيته لم إلا إذا غاب عن بصرك . فجرت يدى بقصص
شئى أجمع بعضها اليوم فى كتاب واحد، بعد أن طال على تشتتها
الزمن ، وقصصت أن أبقي نصها — إلا فى القليل النادر — على حاله ليبقى
لها عطرها الأول .

وأحسب أن الذي حركنى اليوم لتقديم هذا الكتاب للقراء ،
هو أن وطننا المحبوب الذى كان يؤرقنى ماعانا من مظالم ، هى التى
أوحى إلى بهذه القصص ، قد أذن الله له سبحانه وتعالى بمته وكرمه أن
يفكك أغلاله ، ويحكمه أبناؤه ، وتم له العزة والكرامة ، ويتطلع
إلى مستقبل مجيد . .
عوف الله . . عوف الله . .

البوطی

الفصل الاول . بلاغ ورا بلاغ

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : خطوطه سريعة ، جبينه معقد .
وأخذ - أى خطف - البلاغ من يد الفقير ، وانفجرت من بين
شفنيه لعنة ضاع لفظها طى حداثها . يستدعيه الأمور على عجل ،
فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .
وأخذ الفقير يرقب عيني (حضرة المعاون) تيجرى أثر السطر ،
وتلثنى تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطية تخف ، وزالت عن الحدين
خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل . وقال الفقير فى نفسه وهو
بلع ريقه :

الحكام كده .. ياما اسرع غضبهم .. ياما اسرع رضاهم !
واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره وأمسك البلاغ
بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته ، ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير
مسموعة . كلها نطق بكلمتين رد عليها بهزة من رأسه ، تصحبها
تلعية من حاجبيه ، وشاركها رجله اليمنى . فهى - من تحت المكتب -
تقرظ كل تلعية بنقرة .. ونخم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت
رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق
ضحكة فاحشة ، خليعة غجرية .

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر
على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . وما ل بقلبه ضد العمدة
« بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم شخطه ونظره « . وابتسم هو
أيضا ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا
ياسيدى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع :
فيها أنه يتلوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصحبها كلها على
رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح . ويشمله بتهكمه لتكون لذته
مزحوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر معادة البليك
المأمور . ما أشعر إلا ورأيت سلمان عبد المال ، فما كان منه إلا أنه

أخبرني أنه سمع بالاشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا ،
عباس أفندى حسين ، أنهجم على محرومة بنت الشيخ مبارك حال
كونها رايحة تشتري مترجاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور
أعلاه أنهجم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب ،
فانسرعت وجرت منه ، لاسيما أنه في الطريق العمومي . وبسؤالهم
لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة وكلام الناس . وللأهمية للجميع
مرسلين للمركز أفندم ...

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهدان

حاشيه — عباس حسين أفندى عاصي على أوامر الحكومة وشيخ
الخفر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ — ففيه « لاسيما » — هي وحدها سبب
ضحك حسنى . بل لم يستطع — وهو المعاون القديم في الكار —
أن يتمالك نفسه إزاء مكر العمد ، يبدو في مثل جديد . ولكنه هذه
المررة مكر صبياني يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور .
ففي أول البلاغ (أوامر سعادة البليك المأمور) وفي آخره
(للأهمية) ... رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسئولية ،
ليس له يد ولا إصبع ، ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم

أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير
العمدة نفسه : « حقاظات ، وخصومات » ... ليس في البلاغ
شكوى من أحد المحبى عليهم .. والمرسلون للمركز ، والوقت ليل ،
شهود قد يكونون غير متطوعين .. وحسنى ليس في حاجة لهذا البلاغ
ليفهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن
أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينها حول هذا المنزل من جدل
كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى »
الرجال ، ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها
حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاضم ببلدته وطربوشه ،
وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الحلف
مكانه وراء الحماموسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة .
ولم يكن حسنى لسى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو .
عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع
بفضل الوسائط أن ينقل خصمه من البلد كلها ، لا أن يخرج به من
الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن يتخذ له غرضه ،
وهو ينوى أن يصلح ما بينها . وانتبه فرصة وجوده في كوم النحل
بعد يومين ، وعرج في طريقه من المحطة الى البلد على مكتب البريد .
ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى
دوار العمدة ، حتى لا تكون « الكرامة » سبباً للرفض ... وقف
حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين حاضبتين :
يا عباس أفندى ؟

فواجهته رأس على كفين تقبع فوقها كاليافطة كلمة (بومته)
خبطت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجهاً مطاولاً يخرج
منه بوضوح ألف دقيق . فتحناه ضيقتان ، تحتهما شفتان رقيقتان .
فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من جمال حلقاته
المشبكة .

يا عباس أفندى ! كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيرة .
أفندم .

مش من صالحك تخانق العمدة ، أنت راجل منا وعلينا ..
أنت أخونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا ... دا راجل طيب لسه
عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين يتبقى زى العسل . يهب يهب
وبعدين يتنطق
— دا لسانه زفر ...

لا ... لا .. أنت غلطان

واستمر الكلام بين الوجهين ، ينقلان كل حين وآخر مكانها
بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد
بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحة المعاون .. ولما عاد
إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأنخص — من
تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل ...

فإذا هذا الأمل يهدمه الغفير الواقف أمامه ..

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حياً » أو يضحك على

عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الخلو . فهذا بلاغ به رقم وفيه مسئولية ولكنه لا يدري لماذا لا تطاوعه نفسه على السير في تحقيقه ؟؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب .. ولكن ما الذي يربطه به ؟ وماذا يهجه منه ؟ في قرارة قلبه ميل خفي .. هل مبعثه حلقات الشعر المشبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون في غرفة مظلمة رطبة في بلد حقير ؟ .. عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية خيل إليه أنه يمسك بيد سجين . . .

و « كلفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التليفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجع عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان في صوته صداقة غير مفضوحة . وثبات وتأكيذا . ويرن في السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، محتد الكلام . مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

في اليوم التالي قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، يتكلم وهو واقف . . عضلات وجهه ترنحش ، محتقن اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه ... هو يعلم الشكوى المقدمة ضده .. ماذا فيها ؟ أنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف .. أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ ليس بسبب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيء النية ، الخبيث ؟ أو يشهد بأنه كلم البنات

كما يدعى - في الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ولا يستحق الإيجار
الذى يدفعه . ان أراد إثباتا يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله
ألف مرة أنه لا يعرف هؤلاء البنسات ، حتى أسماءهن . الشمس
لا تدخل غرفة النوم ، والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهويلوح
بيديه يكاد ينكس على المكتب ، وأصابته حركته الدوارة . فاندلقت
على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدثه ، ولا قطعت تحديقه حسنى
في هذا الشاب المموم ، تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دقق النظر
فيها من بين العوارض . فإذا به الآن أمام عينين تضيقان وتتسعان ،
لا يستقر إنسانها لحظة . لهما بريق غريب . ماؤهما يغلى . .

أجلسه حسنى ، ولم يفاتحه بسؤال . وعند انصرافه أخذته من ذراعه
وسار به إلى داره ، وأغلق عليه من « كولو نيته » . وتركه في
غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغظيتها البيض وجوها
المهادى تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجدته
يخفى وجهه بين راحتيه ويبكى بحرقة ونهبة متتالية . فانسحب دون
أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لا تنهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته
وتجاربه حكايات تنسى المموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكاه
أنه تعب من صحته في الأيام الأخيرة . فهو يارق بالليل ، يشعر في
الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكسر ، لم يرتو من
النوم والراحة ، أقل الأسباب - بل أنفها - يستفزه الآن على خلاف

طبيعته ، فينفجر فجأة ويهيب . له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد
سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم ،
ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءت هذه الدوخة في الطريق . لا يدري ماذا فعل ؟
وهنا تعلم ويخفض بصره وصمت . ثم عاد يؤكد أنه لا يعرف الفتيات
كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية .
وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرّة في كوم
النحل ، وهي بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلاً يقضى
على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه . فابتسمت
له عيناه ولكن ليس في نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ،
ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

لم يطل صمت عبد السميع وهذان . فبعد أسبوع واحد كان
عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفي هذه المرة ترك العمدة مكره
وأناقته في الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً
قصيراً صريحاً ، ليس في آخره تحريض . في بعض الأحيان يكون أسلوب
العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون
سلاجة الكلام هي الإطار الوحيد الذى يتناسب وما بلجرائم الفلاحين
من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن

بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة ، لالتوافقه بل لتناقضه .
فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها .
هى مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من التعقل
والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب — الذى يظن أنه آخر ما يصلح
لوصف هذه الحادثة الشاذة — يستطيع أن يلم على الورق — بالبساطة ،
رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة — ما للحادثة من شتات مائل
الوضع ، متنافر الأجزاء ، مثير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله
حزن وفجيعة

عباس عائد فى الصباح المبكر إلى المحطة ، راكباً ركوبته فوق
الحسر ، أمامه حقيقته الصفراء مملوءة بالخطابات . يثير دهشة أفواج
الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من يحبيه منهم .. له
ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملتو على الحسر
المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد — كالمراقب الحذر — فوق
الغيظ المجاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه ، وفى السماء
قطع من سحب ، عذارى ، رقيقة الحاشية ، زاهية اللون ممشطة
مترفة ، تسير الهوينى — متداخلة متفارقة — للتنزه والتمطى فى الشمس ،
فهى شفافة مبهتمة ، ليست سودا ولادكنا ، كأخوتها الحلبيات بالمطر
وفجأة رأوه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً
ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير فى الهواء كالريش ، ثم
يعود من جلده ، والفلاحون يحملون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك .. وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم اتبها وتجمعوا عليه . لا يكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ، فهو محنى بهتز - ورقبته ليست منه - إلى الأمام والخلف . عيناه مريضتان قد انطفأ بريقهما .. وجهه أصفر ، وحالته كرب .

الناظر عيان ...

دا مسوراً ...

رشوا عليه ميه ...

وأحاطوه بالأذرع . وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ، وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن في تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الحديد حتى ترحم على مستقبل هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه بالأسئلة ويفتش ثيابه . عله يعثر على نقود سيدعيها - في أغلب الأمر كذباً - بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينهز الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى . كل هذا وهو مريض ، وحيد ، في منزل مقبض ، في بلد يرأسها عدو يشعر - وهو على بعد - بشماته .

قصد حسنى أن يصل لكونم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع أن يقتطع من الزمن بضع دقائق ينخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين

عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه في القطار هبطت حماسته وسرح ذهنه في أفكار عديدة ، تبدو أن لا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هي اليد الخفية التي تحرك أفكاره . لا يتجمل بها إلا على كل فرع أجرد ، أو ماء آسن . وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التي جمالت في ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لا يزال في فراشه ، وأن العمدة أجهد نفسه في جمع قصاصات الورق ، فبلغ عدد الخطابات المنزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً في سرير صغير ، في غرفة مملوءة بالتراب وأسراب اللباب . أمامه منضدة صباح مخربشة كالحة ذات ثلاث أرجل ، وكرسى واحد . أخذ حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام . ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن قباقبه . العيون التي كانت تلهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهد . أين عباس الثائر وحده ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه في صفرة الليمون ، ولكنه هادئ ، بل حاول الابتسام فبدت على شفثيه ابتسامة ذابلة ، ما أجدت إلا أنها أكدت مرضه .

— أحسن ؟

— أحسن كثير .. والحمد لله .. نمت شوية .. كنت سخن .

— ورينى ..

مد له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ،
ثم تركها .
— لا .. حرارتك عادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأسند
ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاهما ببطانيته .
ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث .. مرة من أول الموضوع ،
ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل على هواه
ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطقي في سرد ما
يقوله .. ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح .
ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً .
عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لبس في نظرتها ..
هو فاهم . وشاعر بكل ما في قلب محدثه . رغم الغموض والاضطراب
وضياع المنطق والتسلسل . ولم تقبه نغمة واحدة ، مهما كانت خافتة ،
من لحن صديقه .

الفصل الثانى .

عباس . . أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يبرحوا القاهرة . كلهم يؤكلون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونهم السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الغريب التى يحفظونها تنتهى عند جدهم الثالث كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاى والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم فى مطلع الرجولة . فقطعوا بذلك ماضى الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لا يرى في هذه التفاصيل سوى حكاية يسمعها
ويرونها ولا تؤثر على حياته . إلى أن انتصفت دراسته الثانوية .
فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى — إذا اقتربت الإجازة
السنية — طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون في موعد السفر ،
والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل أسرته نبات شيطاني
عائم على وجه الماء ؟ في نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها — على
خلاف من حولها — جذور قوية تربطها بمكان معين . إجازته
كدراسته تمضي في منزل لا يستقر في حي واحد ، يصغر ويكبر .
ويطول ويقصر . وأخذ يصبر نفسه . يتلوق دونهم لذة لا يعرفونها .
فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون
لبلادهم حتى يخلعوا بلطهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع .
أما هو فبعيد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . فبلدته
موجودة كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها في شوارع
القاهرة . له ثلة من الأصدقاء سريعة تنقل الأهواء . مرة في قهاوى
المالية تلعب الطاولة . ومرة في قهاوى أبي الريش تلعب الشطرنج ،
وأحياناً في قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية
في هذا الحي) . ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخثون بضعة
أيام في شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحتمكم أحدهم على ريال
صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها
ملك لهم .

استمر في دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة معينة ويقول : هي السبب . فالأسر مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض خفي غير معروف يمنعها عن السر . أبوه — بلون مناسبة — أرتبك في عمله ، وأحاله قبل مواعده على المعاش . وأخته غضبت وعادت للمترل . لا هذه ولا تلك أثرت في حالتهم المالية تأثيراً جسيماً . ولكنها فتنت — بغير سبب واضح — من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج عباس — مختاراً — من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده في مصلحة البريد . ولبث في القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه بصرفه وهو نشوان في تحقيق رغبات الصبا المتكتمة . كلما أذاقته شبعاً خلقت بدله جوعاً جديداً لأنواع مختلفة من اللذات . كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الأخرى .. ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذي صدر فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) ...

من ساعة ما حطبت رجلى في البلد ما طقتهاش ، حسيت إني محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليون نور ، ونسوان رايحه وجاية ، وحركة .. لكن هنا : أهو الشباك قدامك .. بص .. تلاقى إيه ؟ شويه طين مكوم ، وناس وسخين مقملين ، ونو ما يذن المغرب كل واحد يتلم في بيته .. والعنمة ؟ باباى من العنمة باباى طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوى .. أول أمبارح جاموسة البخيران ماتت .. قبل ما يلحقوها بالسكين فضملوا يصوتوا عليها ، وهات بالطم .. جنازة حق بتحقيق . ما نتمش للفجر ..

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته
أن ينتقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة متراسة .
الفقير منها بالخالوص (١) والغنى مبرقش بفتات التبن فى طوبه التى .
كلها أقزام متراحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوشحة ، على رؤوسها
شعر الهمج ، فى تلؤلؤ هشة من حطب القطن وبوص لليرة ، ووصلت
إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ،
لا فرق بينها .. حلة الصارخ فيها واحدة . وعناد المتهر سواء ..

على أن عينه لمحت . من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة .. لا يرى
فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قروونه بعد . أزهاره فى
مقبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة .. كلها تهتز
فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مها كثرت
بل لا بد أن ترتعى نظره وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول
فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية
واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى
أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها
فينسى كل همومه ، وثقاله الصعيد ، وبسرح ذهنه ، ويشعر أن
ما بينه وبين الله قد عمير من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مدعن ،
موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تتزعزع من أرضها

(١) قطعة من الطين الجاف تستخدم فى بناء بيوت الفلاحين .

إلا بتلف جلورها ، فهي لا تثبت بعد ذلك في منبت جديد .
لا يقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد
حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت في وحدة مائت
ولو كانت في أطيب مرتع وأرفه حياة .. وعميت عيناه عن ثروة الصعيد
في سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الخطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة
دى . حامل أفندى بالكذب . لا طلت عنب الشام ولا عنب اليمن .
عمر الفلاحين ما بصوالى وأنا فى البدلة الصفراء دى ، زى ما بيصوا
باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان
لا بسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنك
وباه ، أتكلم معاه . العملة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى
الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمه . أقرب أفندى لى
ناظر المحطة ، ودا عشان أوعله لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة
٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجن
أبني معلور ولا لا ، إذا كنت اتعلمت الشرب ؟ كل ما اتزل البنتر
أجيب إزازة أو إزازتين كونيالك . كل مصروف إيلدى رايح على
الخمرة . وأخرتها اتهدلت بقايا القياقة بتاعت زمان طارت ، وبقيت
أسيب دقنى بالجمع ، واتعودت أروح بالجلابية والحاكته للمكتب .
ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما بجي مفكش . ليه خوة الدماغ ، واقلع
والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول ! !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر
ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما في
صدره :

« كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف في المكتب جالي
الصراف ووراني قصقوصة قماش صغيرة في ايده زفير ولا بوبلين
حاجة زي دى . وقال لى :

— يا عباس أفندى . حاجة لقطة ، والبياع قومسيونجى صاحبي
تعب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟
— حشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلالية على العيد ؟

مش فاكرك قلت له إيه ، فاكرك إني رحت أودة ثانية . حاجة
عبراني . أضحكك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إني أبقى زي ولاد البلد ،
وأفصل بدل البدلة جلاليه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلالية !!
حاجة تضحك ولا تبكى ؟ اللعنة طفرت من عيني مرة واحدة . وهات
باعياط . . عمرها ما حصلت لى . ما كنتش أنصور أن كلمة سخيفة زي
دى ، تخلينى أعيط زي العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس في هذا الوقت على أن اللحظة الذي رماه في كوم النحل
لم يجره بإساءته عملاً مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التي تكاد تقصف
عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ،

بل ونخفي « المنزلان » ، لأن لهم في القطارات وحركة المسافرين ونطلع
الوجوه ، ما ينقلهم من مهددة الضجر والسأم . أما هو فعمله إلى رتيب ،
في غرفة ضيقة لا مفر له منها . في أول الأمر كان له في الخطابات
جدة تأخذ عليه جزءاً من تفكيره . وربما تفكه بما على الظروف من
أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم
النحل قبل) ، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها
(خير وسلام) ، و « بلدوح » بأرقامها ، ومن « يد ليد » إلخ إلخ
ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة . وأصبح يحفظ
عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم جوابات وجهة ورودها . بل أصبح
يستدل على صاحب الخطاب ، لا من قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف
أو خطه أو لزامته ، وكره عباس أيامه ، وبدأ له عمله في صورة
سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبية حول معتوه تشاغله ،
لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجيء له من جديد ، هو هو بداته
لا يتغير ، يخنقه في كيس أصفر ، ويقذف بحثته في القطار ، فيجده -
بعد أيام - على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فعمت له ذهنه ،
وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد
يكون تاماً . يؤدي وظيفته كالمنوم المسوق ، وزاد إهماله ، وعلا التراب
كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة

المعيشة . هي التي وسوست له من جديد . وأعادته له الصفاته إلى
وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده -
كأنه يزنه - وبطيل إليه النظر . ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابك ؟
حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس
بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك
إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجواهر التي ترى حرة في الشوارع .
في أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلابيبها ، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها
أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون
استجداء أو تهديداً ، شكوى أو تحكما ، بعضها قسوة وبعضها استرحام
قد تكون محبة أو عداوة . مكتوبة بالعطر أو بالدم . قد تكون كلها أرقاما
تمثل خراب بيوت ، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة
زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريرة . وقد تكون بعد ذلك تافهة ،
غثة ، تمثل ما في الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها - رغم ذلك -
لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية ، فلا يختلف جواب عن جواب
كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لا نكشف عن أمر عجيب .
وحتى لو لم يظفر المقتحم بشيء فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس
وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله في كل قلب ما يشغله ؟
لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارة روحها مصونة ، لا يفسدها الجهر ،
فالطبيعة فيها على حالها : لا موارد ولا خداع . وربما لا تحوى الحياة
ممتعة تقارب لهذه تتبع رسائل عقل حساس - أنا كان عصره أو طبقته .

وأخلفت يد عباس تأكله . ورغم اجتهداه لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته . وشبهوات أهله ومناحى أفكارهم . فهل يكون عمله هو المنحة التي وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخالها ؟ وأخيراً - لسوء حظه - طرأ عليه وهم هو وحده الذي رجح الحجة المريضة . وقذف به إلى البحر . هذا البلد الكريه سلبه شبابه ، يكاد يكون مقبرته . وهؤلاء الناس المثلثون ، المصفرون الوجوه ، المرضى العيون ، يغمسون له - لأنه غريب - ازورارا وانقباضاً ، كلهم يضحكون في وجهه [بنجث وتباله ، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته . ففي العمل الذي سيقدم عليه خير انتقام منهم . سيطويهم جميعاً عليه ، وتضمهم قبضة يده ، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم في قرارة نفسه . وسيكون هو الفائز لا محالة . سيحاط بالأمر ، ويربط لسانه ، ويكتم السر فلا يدرى به أحد . فليس من خطر . وكان مقدراً عليه في يوم ، بعد انتهاء عمله ، أن يختار جواباً غير محبوبك الظرف ، ويفتحه على مهل . .

... إيدى كانت بترتعش . خائف وبرضه مقاوح . لكن رغم دا ما شبعش من جواب واحد . بعد ما قفلته فتحت جواب تاني . جوابات فلاحين حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب . ومع ذلك كنت مبسوط . حاجة انزاحت من على قلبي . لغاية دلوقتي مانيش عارف ازاي قدرت أعمل كده . . مش دى طبيعتي . لكن حاجة وزتني . . والشيطان لعب بعقلي .

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم . . وقلبه حزين .
ليس عباس أول شاب يعرفه يأتي من القاهرة ليرتكب أول جرمه في
الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاب النفوس ، على وجوههم جمال
الرضا والاتزان ، في حركاتهم وملابسهم تألق ، فأصبحوا بعد زمن
غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقيلة حركاتهم ، نظرتهم حيوانية ،
وكلامهم بداءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة . أفكارهم مخيفة محصورة ،
ضيقة . حين يعودون لمدينتهم ينكرهم أصدقائهم ، وتختلف أذواقهم
حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المستول عن تفهم . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم
من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط المنافر لهم ، أو
إخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض
عن شره . فهم لا ينتقمون من جو الصعيد المقيض ووحده القاتلة إلا
في أنفسهم . يسهلون لها المترلق ، ويردون في عناد وتكبر إلى الهاوية .
بدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهي بسكير مدمن . الخمر أهم
خزين بيته . . ويلعب آخر للتسلل ، فيصبح مقامرأ يسهر للصبح ،
ويوقف حياته على تشم أخبار « البرتينات » . ثم من وراء ذلك من
ينساق إلى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم
من ينتهى إلى السجن . .

ليست سقطة عباس إلا مثلاً آخر على ضحايا الصعيد . لا ينفرد
وحده بهذا الجرم . فكم في الأرياف من مكاتب يريد يفتح

موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والانتهاكات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التى يتعلق بها . . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما فى طبائت نفسه من قبح مكتوم ، ولكن حسنى يثق بإلهام ووجدان فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا اختاما فجيعا لاصطدام عباس ، ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطنه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفناً .

٤

« كنت فى الأول أفتح الجواب إلى يبنى تحت ايدى بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسليه والسلام ، لقيتها كلها سخيصة ، بقيت بعد كده أنتى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة صجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . »

« كل الناس يواجهون الشباك ، أما هى فجاءت ووقفت بجانب ، منكشمة ، الحياء يقطر منها . سألتها عن حاجتها فلم تغير موقفها

وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه
بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .

ما ليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهين على .. ياخوى ..
دا الغشم ما كنش كده .

أم أحمد تتعصب بمنديل « بقوة مفلفل » وتغطي وجهها بطرف
طرحتها قلما تزيج ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس
على أنها إذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها في نفسها وفي
حررها الذي لا يزول ، فهي تزيج لمحدثها طرف طرحتها لحظة واحدة .
ثم تعود لصوابها وتغطي وجهها ثانية في حركة سريعة ، كلها جبن
وتردد ، يتمثل فيها نزاع حاد لا ينتهي بين قوى متكافئة : غرورها
وحصافتها .

ناولها خطابها ، فمدت له يداً ، من حافة أظافرهما إلى الرسغ
فروع من الوشم مغمضة ناشفة ، لم تغلح الحناء في تغطية زرقتها .

— « من إيد ما أعدمهاش أبدا . . . يمتعك بشبابك ، تنهى . »
أنحلت تبيته كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها في المواظبة .
لم يتأخر في يوم . . . الظرف الواحد ، وختم البريد لا يتغير (مصر)
وانلحظ على الظرف مهلب ، والكلام مختصر ، يكاد ينفرد عن بقية
الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلاني أهم بالولية دى . . . خايته ح تكون إيه ؟
الجوابات دى من قريب لها ؟ مش معقول . . . لما جت البوسطة

وشفت جوابها ، حاجة خلتنى مش قادر أسويه من إيدى .. بصنعة
لطافة بشويش على السبرتوشوية شوية لما فتحته .. فكرك لقيت إيه ؟
جواب حب من الدرجة الأولى . . فيه بوس وأحضان وشكوى
وكلام فارغ زى ده . . ضحككت لما انفلقت . أول الجواب
(حبيبتي ونور عيني) . . مش مصيبة ان الولية دى تبقى لسه للدوقى
نور عين ؟ لكن بقيت مش مصلى ، مش داخله راسى . لازم
المسألة فيها سر تانى . إزاي أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت للإمضاء
لقيتها خليل . . جه فى بالى طوالى ظرف دايم ألاقه فى الصادر
العنوان إالى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل خليل إبراهيم أفندى

يحفظ بشباك بوسنة الفجالة مصر »

لازم هوا . . ح يكون فى مصر كام خليل لهم جوابات
من كرم النحل ما فيش غيره فى الغالب . . تانى يوم فتشت الصادر
ع الجواب إالى فى بالى لقيته . . الظرف مكتوب بالكوبيا . خط منتظم
لكن حروفه واطية . حاجة نسوانى كده . . زى ما عملت فى الأول
عملت فى الثانى . فتحته . لقيت رد جواب أم أحمد كله حب هو
واخر لكن الإمضاء لا أم أحمد ولا أم دياولو . . كلمة واحدة
معقولة : جميلة عرفت إنى أنا مش وحدى فى البلد . . أم أحمد
عامله بوسطجى معاى . تانى يوم لما جت لى ضحككت عليها وقلت لها :
— لك جواب مسوكر . . من فضلك أكتبى اسمك هنا .

— يا بنى ما تضحكش على . . دانت غالى عندى قوى وحياة
شرفك نختمى نسيته فى البيت .
فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابنسمت قوى
افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .
تبعث مراسلات جميلة وتحليل . . هى اللى تستنى الجوابات
الثانية . مابقاش أفتح منها ولا جواب .

٥

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع
بين فنى بختنى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها
متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً
على ماتراه عيناه ، لأمله ما بها من خلط بين الحب وأحاديث أخرى سخيفة .
فليس شىء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من المثل ، لديهم كل ثورة
متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هبوب كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك —
ذو قلب حساس . اهتز كالعصا اللى تكتشف المناجم الخبأة . فوق
كنوزها المدفونة بين السطور ، شىء نخبى فى هذه الخطابات تعلق
بقلبه ، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفنى نفور . . فهو يكتب بالحبر ،
خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه
أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شىء . يبدأ كل مرة

من طرف الورقة المثني ، ووضع التاريخ دائماً في أول الصفحة من اليمين ، ودائماً بالخط النسخ يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . في كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التي فتحها عباس ، خطاب يحكى لها فسحة في القناطر الخيرية مع بعض أصحابه بدأه باللغة العامية ، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحي فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن في مبدأ الأمر أنه لابد أن يكون تلميذا .

ضاعت قيمة جوابات خليل في نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ قلبها كل تفكيرها . . وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس في القرى الفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هي في أغلب الأمر حبيسة دارها . فاقترنت جميلة على وصف شعورها وأفكارها تنقص له - من جديد - ذكريات قديمة بينها . وليس من جواب إلا تضمنه أملا لها في المستقبل أو ثقها بعدالة الله . لم تحاول

مرة أن تكتب باللغة الفصحى، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها ..
كتابتها تنهى دائماً - وكأنها مرغمة - في آخر الورقة . خطاباتها
كالظروف مكتوبة بقلم كويبا . مرة تبدأ من الطرف الخلفى ، ومرة
من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفي
بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيراً ما تهمل التاريخ
و كثيراً ما يكون في خطها حروف أكثر ظهوراً من غيرها بتبليغ
الورق ، دلالة على أنها تسهو في بعض الأحيان وتضع القلم في فمها
تبدأ الجواب بحروف متفاربة، وتنتهى به وقد اتسعت . لاحظ عباس
أن هذه الظاهرة تتكرر في الخطاب الواحد ، فاستنج أنها تكتب
الجواب في بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا
يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع في روحه . الكلمة التي قامت
عنها ، هي في ذهنها عندما تعود .

٦

لم يكن عباس جاسوساً دينياً يستمد كل لئامه من اطلاعه - مجرد
اطلاعه - على أسرار يظنها صاحبها في مأمن ، سواء أكانت أسراراً
ذات خطر أم تافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر
يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو أو كان كملك لا ارتد شعوره
ساعة فتح الجواب وانحصر في نفسه لايهمه - بل وربما لا يفهم -
ما يقع عليه بصره . يغمره نجاحه في معرفته للسر بالغبطة المريضة ،
على وجهه ضحكة صفراء لكراء ، خبيثة ، ممروزة ، هي أكثر
ما تكون تهلل الشيطان الذى يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلبا يفكر ما عتبل في نفسه ، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شيء في هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . أهو من لدمه على جرمه ؟ أم لأنه استغاق لأول مرة في حياته على ضجة الدنيا ، مخنق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين في كوم النحل تحق قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهدأ أو يلوى ؟ كيف احتملت جميلة حتى ضمنت أم أحمد في صفها ؟ وسط أي الصعاب تم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكوييا ، لأن القلم أسهل في الانخفاء من الريشة والدواة .

ما كان يظنه لهوآ وتسلية انقلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل يحىء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه في جيبه وتملكته حمى العاشق ، لا يطيق مرور الساعات التي تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، سنده ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه في عمرة ضوء المصباح ، ولكن في تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض مستريح غير قلق . خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله .

ليل في ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرعماً ، هبط على الفضاء حملاً
ثقيلاً ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكنف ، ولف
القرى كالضباب . وانحدر - ولاحد لاتساعه - إلى الشقوق فاحتواها .
ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتشربه
فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن في كل زورة لكوم النحل ينسل كاللص
إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا علم السر الذي
يحتويه . . إلا إذا ضغطت يده على مفتاحه .

لا ينتهي عباس من قراءته حتى يغشاه الوجوم . في قلبه وسواس
غني يشعر أنه صادق لا يخطئ . بهمس له أنه يطل على النصول الممهدة
لأساه ، ويكاد يحس بيد خفية تجلبه شيئاً فشيئاً من غباً المتفرج
المجهول ، إلى حلقة النزاع التي تضم رأسين لا يشعران بالسيف
المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

في الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لا يحتسب ،
فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال
عباس عندما فتح أول جواب أن قلر هذه المراسلات سيقاطع قدره
ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون في أول الأمر لعبته ، ثم في النهاية
مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة ولعل أكثرهم
تأثراً بها من لم يخط فيها حرفاً .

« ثقلت في الشرب شوية . وفي الوقت ده بقيت أنام الليل وأنا
خايف ، وجاءت لي أحلام مزعجة . وفمت مرة وأنا مفزوع أصرخ .

ماfish حد في البيت غيرى . آخر ماغلبت اترجيت غفيرة الدرك انه
يبقى دائما موالينى . فات على كده حصة ثلاثة أشهر وأنا مايفوتنيش
جواب واحد . كنت الأول أنخن حاجات كثيرة ، لكن بعدين فهمت
من الجوابات تاريخ البلت دى من أوله لآخره . لكن من هى ؟
ماعرفهاش أبداً ولاشفهاش . كنت خايف لو لحت لأم أحمد تكون
مرة بنت حنت ، تفقسنى وتودينى فى داهية مرة ملعب مش مساهل .
اتشمتت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريباً . ازاي
أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات الى ماشين . كلهم الطرحة
على وشهم ، منقوفين فى ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرنخش زى
الورق . يمشو لازقين فى الحيطه زى الى راح يدخلوا فيها . ما تلمحش
وش واحدة منهم . بين فيهم تكون جميلة . حاجه تجن . كل
واحدة أشوفها أحسن أن قلبي يتنفض ، مش يمكن تكون هى ؟
كل الى عرفته كان على أم أحمد . كل مااستفهم الاى ناس
كثير يعرفوها ويحكوى عنها . ولما فهمت السبب فى إن جوابات تحليل
تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها .

الفصل الثالث . جميلة وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . بأسوط . ليس فيها أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذى خلق البلدة ؟ أم هى التى خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل ما يظفر به الباحث سطر ونصف فى خطاط على مبارك : « مشهورة بجودة عسلها . بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلو متراً » . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهى لم تتأثر بالطوفان العربى ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقة « بنى » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هى واقعة على الجسر « الطوالى » . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الخوض ترفع عن الزراعة .

والأغلب أنها ظلت طول عمرها في تجارات تعيش زمناً ثم تختفى . فلما وقعت على النحل — ولا يعلم متى — لم تسطع ان تتخلص من قبضته . وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته ، فأدخلها نخليته لالغطيا بقيته المرمرية ، بل بشهرته واسمه .

وبال بعد ذلك نجت مصر ، وذوت صناعاتها ، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر ، ثم بلعه الكون وغاب . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم ، وبعض نخلات من العطين على أسطح قليلة . يرزق منها ومعاشها متوقف عليها ، بيوت قبطية تربى النحل وراثة لا اختياراً عن تلقين لاعن سعى . تجارتهم محاطة بسرهم ككهنة دين هدمت محاريبه في نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة في ظلها واستعبادها . فليست تملك كرم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها ، والباقي وقف لسلالة من الشر كس لها قصر شرب في البنلر .

من تجار النحل في البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسامون إنه « عضمة زرقة » ، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأي كره له . لا لأنه يحكم مهنته بعيد عن المساق ومشاجراتها والحدود وخصوماتها ، والمولشى تنزل في البرسيم ، والماء يمر بالقوة ، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضاً !) لا يكاد يفترق في مظهره ، في أخلاقه وعاداته ، عن بقية المسلمين . اللبس واحد ، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته في الطريق كأهل البلد .

هو أرثوذكسى ، يزهر بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جميلة فى الشرفة محجبة بالشبشب.. ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النعمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم ، يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه إنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أتلغه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباهما فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسيوط . وقف فى الشارع بعض ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمانة يلوح بها ويغرى : « فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قرابة وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصل ، المسر كارتر الأمريكانى والمدمام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى ... »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة
عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لاتعطين المعلمة ظهرها حتى
يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله
دلال . ينداعبها ويلاعبها . يقتلن الوقت في الفسح ، ويتبادلن خلصة
روايات كل سحرها من وهم قارئها .

في نهاية كل سنة تعود جميلة لتشيع من « برام الرز بالحمام » ،
« وتشبرق — يا حبة عيني ! » وهي محرومة في أسبوط .

ويوم يمر ويوم يأتي ، والفتاة النحلية القصيرة ، يتبشى سر
الحياة في جسمها ، فينبت ثدياها ، وتعرف الحجل ، وغض العين ،
وصعوبة النوم . . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع
الشهادات ، فجاء في أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن
يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى « النخيلة » ، لأنها مشتاقة (قوى
قوى) لحالتها . أسبوع واحد تمضيه هناك ثم تعود لكوم النحل .
« لكن مش ح سيبك تغيبي هناك . أمك عاوزاك بالحيل .. »

٢

وأخذها إلى « النخيلة » . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها
لحالتها ، بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه
البلدة . وعد له حرمة لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أنحنى

وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله إيمان وغيره وعتاب . عشق حاد
لا تعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين
الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفر والاختلاط .
هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفر . ، ولكن عدد من يعرفها
فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم
على المنزل واكتسابها لقلب الحالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل
أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من
خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يمض على اشتعال
جلوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم
« أختى وحبيبتى طول العمر » . خدع نفسها لكبارها للصدايقة ،
فانسقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها
ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة
لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين
شفته . فى حديثه لثقة لا ينساها من يسمعا . خده لم يعرف الموسيقى
إلا من وقت قريب . يحمر ويصفر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك
لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروتستانتى) فى مدارس

الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لا يقل عن فرحها ، فهو موعود
بوظيفة مدرس في إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر
إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذي فاز به لحصوله على أعلى
درجة في اللغة الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ،
كمادة التلاميذ ، أن يتكلما بها ، وهكذا . وتثقل الحديث بينهما
فإذا بعقلية الفتى في مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة
فكاهتهما مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شلوذهم . وأزال
هذا التشابه ما بينهما من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بحيل
معظمه صبياني نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد
بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسيا نفسيهما في إحدى
هذه الفورات واجتبا منها الشباب جزيته .

لما انتهت السكر ، لم يستيقظا على منظر مقبض أو قلب ملتان .
بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن
أمنية أمها أن تزوجه في أقرب الفرص . ووعدا خليل أن يعود
بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشرة
قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباهما يعارض أو يرفض . وكادت
جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتهما عند اقتراب السفر . كانت
تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن
تغطي على اهتمام الحبيب بحبيته . في حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل
لا يدرك إحساسه ان اعتلأوا به بإحداها يتقصه في نظرها ولا يبرته .

على أنه استطاع أن يختل بها ، وكرر لها ، وكان صادقاً ،
كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى في صورة سعيدة محققة .
مسألة وقت لا غير . ثم هفا به لسوء حفظه طبيعة الصبيان ، وطلبها من
جديد وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا
لطلبه ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست
معه بفراغ بارد يدب في قلبها فيطفئ من هيجانه وناره . في الحاح خليل
عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على
خفته وقصور نظرة عند موطن قلميه . يمس لها وسواسها : لم
العجلة مادام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هلمته
حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تشبث برقبته .
تحوطها بلراعيها ، وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى
صدرها وتهللى كالحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل في تهديتها . فهي التي استغاثت إلى عبث ما بدا لها
من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على
مستقبلها ووثوقها بخليل .

وبدأ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج
خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ،
فهو سيتزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم
التفتت إليه تبسم ، وكأنها تعابه . مزقت الورقة أمامه :

يستحيل أنساه .. ما تخافش .

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب .
وفي كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون
علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو
لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

في مسائه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يملكه ، فهو
عجل مشرق الوجه لا يستقر على فكرة . لم تصلحه الفتاة بوجه عبوس
أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ،
بهجة . هل يستطيع أن يحدد لها ميعادا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد
أول مرة يقبض فيها مرتبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر
واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه
البعداء ، وسيتزل لديه مدة إقامته في كوم النحل

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ،
ثم طوق خصرها . عيناها في عينيه . السعادة التي تغمره صفت
طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نقلت نظراته إلى
قلبها وطوى شعوره شعورها .

«أحلف لك بإيه إنى مش ح أخونك فى الاسكندرية . إدع
تفتكرى .

أنا بقيت في إيدك .. اعمل في اللي تعمله .

إنتي خايفة ؟

لا بس مش عارفه ح أصبر ازاي .

كل ما تفتكري في اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة
مليانة . عايزك تكتبى لى كل يوم ولو سخته ، وأنا تو ما ح تبعيل
عنوان ح اكتب لك على كل حاجة .

وجلس واجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينها وبين
ضفائرها . ثم توالى قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لا يدريان
كم من الوقت مر عليها . ولا كيف تنهى هذه القبلات .
حركة رجل وصوت باب ، قطعاً عليها الخلوة . وقام خليل ..
آخر ما رآته منه وجهه يديره لما وهو يخرج . وجهه طفل سعيد فرح .
بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقهرت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها .. وعادت لكوم
النحل معها حقيبتها . برانيط و كتب : أحجوبتان في منازل العطين
والقش ..

وتوالى على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً
تفكر فيه كيف تدبر طريقة يرسلها بها خليل .. وكتبت له
جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلاً .

وبعد أيام كانت في مجلس كله فتيات من سنّها ، ينصتن لفنّاة
تفّضى لهن بمخاوف هي على كل حال للديدة ، بدليل ما في وجوه
المستمعات من تطلع وعيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهي
لا تدرى شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هي
خائفة مضطربة . توالى عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهد .
وكانت حجّتهن جميعاً واستنادهن الوحيد (أم أحمد هي التي قالت) .
هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبه من قبل . لا تعرف عنها
الكثير .. ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هي امرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق
بعد عشرة قصيرة . وتسنّى لها بفضل هذه المجموعة أن تشتري بما
جمعت من متأخر المهور أفدانا ونصف جاموسة . هي ما شطة
« بلانة » في الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقنّسين !
— أوردجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصمات ،
وتفسر الأحلام وتحسب النجم تفوح منها دائماً رائحة الماورد ، كل
مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة .. إلا في المآتم ، فهي
لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تنفج ،
كعظم المتطوعات باللطم و « الصوات » ، في ولد عزيز ..

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ،
عن جسمها وثوبها وشعرها وجمامها . وإن كانت امرأة سألها
عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه .. كم في كوم النحل

من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل في بعض الأحيان - عندما تكون « رابطة » - مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هي سبب اطمئنان فتيات كثيرات في لياليهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات في نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة - أو ربما بسببها - شعرت بوثوق شديد بها .

أفضت لها بقصتها ، وإن كتبت عنها زلتها ، وبقتها حيرتها في شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هي التي اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانها هي .. ستحفظ الرد من « جوه حبابي عيني .. » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان .. واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية .. فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كويبا خفية في منزلها . أحياناً تعطى الجواب لأم أحمد ، وهي التي توصله للبريد ، وأحياناً تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل ويعلم أبيها .. وهذا لأن مكتب البريد في السوق أمامه دكاكين ، وأناس

جالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم
أبيها خبير ترددها على المكتب وينفضح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته
بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر
المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه أوصى بمنحه علاوة
وبترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة شلت بمدارس القاهرة ،
وسيسافر إليها عن قريب .. أليس هذا من بركاتها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابه من القاهرة . هو فى
وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه
مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شباك بريدها فجالة لأنه
يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أولا بأول .
وانتظمت المراسلة بينهما .

الفصل الرابع . فرحة ماتمت

١

وفي خليل بوعده ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل
لدى قريه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يثمه بأنه غشاش
أو مخادع . كل ما في الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسداجة على
أدق المواقف ، جاهلا بما في شعائر الحياة من صلابة . فقد جاء لكوم
النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدري بالضبط إلى
أى مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميلة .
يخطبها فقط من أبيها .

وقابل خليل مع قريه فلتس المعلم سلامة ، وفاتحه برغبته في
الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط ،

لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة . يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزا لا تتحرك ويثلف أمل البنت . ثم ما داعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد فقد ضمت أمها إلى صفها بل كانت تحركها طوع لإرادتها .

في الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم في الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى . عندما فهم المعلم سلامة أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة في منزله . وقبل بلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على ألا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر ، فهو لن يخسر شيئا الآن . ولن يبدأ في شراء الجهاز — من ملابس وصيغرة — إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعي من جديد .. وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم .. العريس بروتستانتي والعروسة أرثوذكسية .. فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن هل جاء بشهادة من كنيسة بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها تستلزم وقتاً . وخليل في إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى . لم يستطع أن يختل بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها ، فأمامها المراسلة بينها ، سيتفاهان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الجولة بسفر خليل ، أحس المعلم سلامة أنه
يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه
التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه ؟ وحمد الله في سره أن
المسألة لم تم ، يلزمها أولاً تكملة ما في شكلها الخارجى من نقص
يلحظه الناس . على الأقل تأتي أمه ليرى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً .
ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه في القاهرة عن حقيقة مرتبه ،
وعن مركزه في المدرسة . ولودرى المعلم سلامة أن في بطن ابنته
جنيهاً ينمو يوماً بعد يوم ، كعقرب الساعة لا ترى العين حركته ،
وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل
الهم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت
قد ألهمت عواطفها بالسياط ، وعلمت كل آمالها على مجىء خليل ،
فخائنها حظها الأغبر . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ،
ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن في إشباع شهوة أو
تحقيق حلم ، بل في انقاذ شرف . ولماذا لا نقول انقاذ روح ؟
فمن يلزمها أن حنان هذا الأب قد يتقلب فجأة إلى قسوة لا تلين ؟
أصابه التي تهوس خلال شعرها قد تتصلب في خيانة مباغته وتطبق
على حلقها . جميلة ! أنت ! التي كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ،
تفضحين شيتى . تضعين ذقنى في الوحل ، واسمى في أفواه الناس

يُضغفونه على مهل ، كأنه العلك اللذيذ ، على مهل من هنا ومن هنا .
يتبادلونه كأنه الهدايا ، ويشيرونه عندما يملون الحديث .

لمن تشتكى ؟ فتاة لا تعرف من المآزق والمخاطر شيئاً ، ترى
نفسها أمام مشكلة ليست في الحياة مثلها . هي عقدة كلها اصطدام
وتزاع ، ونخبوطها من ديانة وتقاليد ووهم ، موشجة بحكم الدم
والجسم . وسر الحياة لا يهمه ماذا يعتقد الناس . لا رحمة فيها .
جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش في وسط الصعيد
وب عقلية يرثها عن أجيال لا تتسامح ولا تلين .

اصفرت جميلة وناهت نظرتها ، وتعلمت أن تحتضن الوسادة
بلراعها ، وأن تسرح لا أن تنام . تتقلب على الجنبين . هل من
مخرج ؟ ليس إلا أن يأتي خليل من جديد .
وعادت لخطاباتها ، فهي كل ما بقي لها . تفيخ في روح أملها .
وتستحث خليلاً على الحب .

٣

في هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم في أول الأمر
أن جميلة قد دخلت في دور الأمومة . فهي بعد أن أخبرت خليل
بسرهما في خطاب سابق لم تعد إلى ذكره . تشاؤمها ونخبوطها يثنيانها .
تحتل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقاً من صنع يديها
مكشوف الوجه ، بشعاً يحملق فيها . واكتفت أنها في كل خطاب
تناديه ، وهو قاهم .

وظل عباس جاهلاً سرها وإن كان في دخليته إدراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئاً من النقص والتناقض . فكان ما بها من تشبث بعيد عن الارتواء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن في جريه قد جعل عباس يراها وهو مأخوذ بها في صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد في ظنونه . ولكنها — كلوحة السينما — تدلس الفرع بمنظر أبتى ، وترد منطقته عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائباً عنه عندما وجدها في خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسي ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله في فسحة يضحك ويتسلى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ تجاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهي تدعى المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذي ينم عليها . لا يزال في الأمر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخلها معه . بعيداً بعيداً عن هذا الأب وهذا المنزل . لتعيش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

ولما قرئت الجواب حسيت لأول مرة إن المسألة مش هزار ولا لعب عيال . أثارها حاجة خطيرة وعززة وأنا مش دارى . افكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبي وجعني علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها .

لو كنت في مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا في
في كوم النحل حاجة مخوفاني . حتى الهوا اللي الواحد يتخافه يكتم
الصدر ويخفق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أمل حطيته في الرد
اللي ح يجي . ما ليش صبر أستنى . أنا باللي ما ليش دعوة ولا حاجة
تمسنى ، آمال هي بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه
معه إلى منزله ويقرأه في خلوة ، بل فتحه في المكتب وبقيّة الخطابات
أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :
« عزيزتى ونور عيى

علم الله أننى ما تأخرت في الكتابة إليك إلا لأننى كنت مشغولا
ومشغولا جدا ، وأنا يا عزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء الضامم
الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكدرى من أجلى .
كل التحنن على درس خصوصى والسبب في التوقيع شخص كنت
أعده صديقى كما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

وتصورى يا عزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذنى ، وسمعت
من الباشفراش أنه شرع في كتابة تقرير ضدى ، حتى أصبحت
أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى يشمت من حظى ، وقلت لإراد :
الرب . ولكن محبة إلها خلعت ناس من حيث لا أعرف يتوسلوا إلى

وأخيراً قررنا إعادةنى للإسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك يا عزيزتى أن تكتبى لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق وتحقيق ولكنى زى ماشفتى ما فىش فى إيلدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقة . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعث لك بدوا ينفعك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى — أخبرك أن أنخى مريم مستحضر طرفى للفسحة بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجلها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى — عندى كلام كثير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك .
ألف قبلة من المخلص إليك دائماً .

نخيل

« شفتش بواخة أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زى الى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه ... سكاكين تقطع فيه !! »

الفصل الخامس سقطلة البوسطجي

حطيت الجواب على جنب فوق الطرايزة عبال ما اخلص من
من الشغل واقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلا ما هراش مستعجل
قد كده . ويمكن يبقى ثواب منى لو أخرته عن البنت المسكينة شوية .
ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملأ الختامة حبراً جديداً . وأصلح تاريخ الختم المستدير ،
ثم جاء بالخطابات ورتبها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ
يختمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على
الجواب . خبطة مكتومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى
يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها
وهى تلهث فى صجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه في هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول
العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو يحقق الوجه
هالج . نغم البريد في يده يرتعش . ما هذه « الخوثة » ؟ كل يوم :
البيت ، البيت البيت . يكفيه وجع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا
يتكلم بالسرياني . هو باق لا يتحرك لو عيد ولا لرجاء . إنه ليس
بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويربح نفسه ، ما هو هذه المرة
يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .
نسى أن النغم لا يزال في قبضته . ولم يهتم في حديثه أين تقع
ضربة النغم . ونخائته يده فهوت بالنغم على جواب خليل المفتوح
وقبل أن يعبى عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل نغم
(كوم النحل — وارد) في استدارة أم خمسة ، تلمع الحروف والأرقام
حبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلاً تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسه
لحرق الورق ، وكأنه جاء يكحلها فأعماها . ولو أقفله وسلمه لأم
أحمد ، فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه
من يدري ؟ وربما قدم الخطاب دليلاً ضده فيكون جزاؤه الرقب
مؤكداً .

« بقيت بين نارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعت
ولا حرقتة تفضل جميلة نهري وتنتكت مستنية الرد والذنب ذنبي أنا .
لكن قلت في عقل بالي : ياما جوابات بتضيع في البوسطة . لو

ما رحلهاش بالمرّة يكون أحسن ، والمسئولية تبقى متوزعة بيني وبين العموم في مصر . والجوابات العادية دى ما عليهاش كنترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه في الرد يكتب لها تاني من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك ، وتكتب له العنوان اللي عارفاه . إليه العنوان دا أنا ما أعرفش ، هي لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس .

واحفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فhez لها رأسه . عادت بعد الظهر مع الأسف ما فيش ، في الصبح مرة أخرى : « لسه ما جاش » : بعد الظهر . « ما كفش ينز » تاني يوم : « النهاردة الحمد ما فيش بوسطة » يوم الاثنين : « يمكن العصر » في العصر : « يمكن في الصبح يجي » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه في جيبه .

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . ما تعرفشي أنا في الأيام دى كنت متعلب قد إليه . ولسه اللي جاي ألين وألين » .

في اليوم الخامس جاء الخطاب الذي كان ينتظره بلهفة ، خليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتحها . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها فيكني ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب في جيبه وسار إلى مسكها . لم يقترب من رأس الحارة حتى رأى

النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشقات » . دق قلبه
وكذب وسواسه . وسأل فأجيب :

أم أحمد تعيش انت .

وعلا حوالبه صراخ النائحات ، ونخيل إليه وهو مشقت الدهن
أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه
وعلى مصيبتة الثقيلة وبخته المائل .

« وقفت مذهول . طب مانت مانت . مرة كركوبة في داهية
لكن الجواب اللى في جيبي أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعى بدل ما تتصلح
اتهيبت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه :
(المرسل إليه متوفى) . لو كنت ما بوظلش الجواب الأولانى كانت
جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت
أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط
الى بين الإثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبنت في
كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لا زم ح تفهم إنه
يتهرب منها والحدع مظلوم . ويمكن كان يحى لو كتبت له مرة
ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول بتخلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص
نفسى وبس . حرمت اللعب في جرابات العيال دول توما يكتبوا
لبعض من جديد . لكن ازاي ؟ ازاي أتوصل لحيلة ؟ ما يمكنش في
بلد زى دى تشمم على بنت أو تسأل . وتسال مين ؟ دانا غريب
وحازب . وبفرض عرفتها ، أكلها ازاي ؟ مشيت مش حاسس

بنفسى . أبصر للبنات اللى فايتين . ياترى ما تكونش دى جميلة ؟
ولا دى ؟ يمكن دى ؟ قابست وحاجة خلتنى هجعت على أول واحدة :
— جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

— ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت .
شوية شوية ح تقعد ع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العملة الأولانى ضلى .
وازاى انتهر الفرصة دى واشتكافى . أنا كذبت عليك وقتها .
ولما مسيتك كنت عيان صحيح . ما اقلدرش أقوم من السرير . جات
لى حمى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل .
لازم جميلة كتبت مدة غيابة لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول
له على موت أم أحمد والغالب — زى ما قلت لك — أنها فهمت على
عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا
واستلمت الشغل تانى ، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب
قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجى قوام ،
وطبعاً ما كانش فيه مناسبة نجيب له تانى سيرة . عنوانها الجديد للغاية
دلوقتى ما عرفتش ولا اقلدرش اضمن يكون هو إليه . لكن خليل
عمل إليه ؟ لازم فضل هو رايح بيعت فى جوابات على عنوان أم أحمد

ولا حش يأخذها . علشان أناكد كلمت البدل ، وعملت حجتى إنه
جديد فى البلد ولا يعرفش حله ، وسأله :
— عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

— فيه جوابين ثلاثة . لكن ما تخافشى . أنا روقت لك الشغل
تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم أحمد كان لها جوابين رجعتهم
للعموم ، علشان ناس قالوا لى إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تانى من خليل . فتجته . إيه الحكاية ؟
ما بتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . ما لهاش حق تزعل
ما دام فهمها علره . وجواب تانى بعد ده بعشرة أيام تقريباً .
لسه زعلانة ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلها لازم تقولها له . وهو بس
ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زى دى ! وبعد كده مكنت
خمس . ولا جواب تانى جه منه بعد كده .

الجوابات دى كلها بقيت أخذها . ما أرجعهاش للعموم .
وليه الفائدة ! وكنت باعمل كده فى جوابات جميلة . كل يومين
والثانى يرمى فى الصنلوق جواب منها . جوابتها رخرة اللى راحت
مدة غيابى ع الفجالة ، طبعاً لسه مأتحة فى الشباك هناك . ما حش
بياخذهم .

وتاوت نظرة عباس وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمى
بعيد . ليس فى وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهائجة . تمثال
من البرونز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط

الحين ، واللفظ البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهو
يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على
أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .
— وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهلاً صوته وأخفت نغمة :

— « جميلة ؟ يمكن بعثته له ٢٠ جواب . كل يومين ، وفي
الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى بيحبهم للبوسطة . كنت دائماً
ألاقيهم الصبح لازم حد بيرمبهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول
سألته : ليه ما بيردش عليها ؟ هى مش عاوزة منه حاجة ، بس
يفهمها ليه سبب سكوتة . »

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطاطىء
رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيبتها كبيرة ، ولكنها واثقة فيه
لا يفارقها اعتقادها أن كرهها إلى فرج ، فهذا جنت هى فى حياتها ؟
لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنبت فى حق الشاب . يارب
لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليديقها المر ؟ من أساييع
وهى لا تخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا
ما يدفعها إليه جوعها .

ومساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمقره إلا
لينا . تجارته تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة
الأخيرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ، ودخل وفى حضنة
بطيخة .

— جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت حيافة شوية . سيبها .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته .
لما رآته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور
ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت
نظراته على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ فى اللحظة الضئيلة
سنين . هو « العضمة » الزرقاء حقاً . وجهه فى لون رمادى منطوى
ذقنه معفرة وشفتيه « منيلة » . فى عيونه لمعان أصفر ، وكأن رأسه
صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهى ثقيلة الدم ، فتتضم نصف
أذنيه ، وأدار وجهه لينادى زوجته ، فانفلتت جميلة وعادت إلى
فراشها نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت لخليل جواب طويل . لازم أبوها مش
ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ما لهاش أمل . ثلاث
أربع أيام ما يخرجش من البيت . ينفخ ويتهد . كل ما تحس برجله
جاية ناحيتها قلبها يقف . لو يحى لخليل ولو يوم واحد ، كل شىء
ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجله . يعمل فيها
معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن
الظنون . على أى شكل ستلقى حتفها ؟ أبحثار حبلا أم مكينا ، مخدة

مبللة أم سماً تقيماً ؟ ونسيت جميلة خليلاً وصيته وكذبه وخيائته ،
واقترعت اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من النار لنجت .
ولكن أين السبيل وهي محبوسة ؟

« كتبت له الدور ذا يا يلحقها يا ميلحقهاش .. لو ما نت مقتولة...
يكون موتها علشانه . يبقى ما ينسهاش .. ويفتكر في تربتها ..

آخر جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته
وقريت ، كلمتين اتنين بس .

« خليل .. الحقنى ! »

عمرى ما شفت واحد يطلع في الروح . ولا شفت ميت .
الكلمتين دول نخلو جسمي يقشعر .. تعرف الحروف لما يشخر
ويرقص وقت ما يندبح .. والفرخة لما تهرى ورقبتها مقصوفة ..
كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول .. الجواب ده مسكته
وقطعته .. الباقي اللي في الشنطة زى الرصد قلناى .. هماح يكونوا
أهم من جواباتها اللي ضاغت طظ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا
في داهية إذا كالوا عاوزين .. جوابات سمجة سخيفة دماها بارد ..
رحمت نازل عليهم وهات ياتقطع .. تقولش ساعتها إني باقطع في
هلموم واحد بخاتقه .. بغل .. وبعدين ما حساشى بنفسى .. دخت
ورحت في دنيا غير الدنيا .. اللي غايظنى ساعتها ان الدنيا دى حاجة
سخيفة .. لإنهيا لي أنها طرشة . تفضل معها صرخت فيها ماشية زى العادة
ما فيش حاجة تقدر توقفها .. ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص

وراها .. البنت المسكينة دى داسها وفاتت عليها . أنا لغاية دلوقتى
ما اعرفش جبرى لها ليه .. أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى
أنا متأكد أن البنت دى ما تمّت غدر .. والسبب أنا .. ما فيش حد قتل
البنت دى غيرى أنا . .. أنا ..

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمترج فى السرك
تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها ككل ليلة -
تنهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ،
يسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه . مقلداً أحزانه وهمومه ،
ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخائنه يده ؟ ويعتقد
كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً
أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد
إلى هذا المريض ثقته بنفسه ... ولكته وهو المنجبر المحرب
لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التحليل من حديثه وهياجه ، أو بأن يفتح
له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ،
لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها بأساً
وندماً .. فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض
لا حيلة ، بل اعتقاداً .

الضمت إليه حسنى وهو يتسم :

« ومن اللى فى الدنيا دى كلها مشول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن بدأ وضعت حل فيه . جملة يتصيدا

ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبتة فهوى تحت
ثقلها . . كصدمة ممثل بقاء عند ما يستيق على أن دوره
يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس وإقرب إلى حافة فراشه ا
« طب قول لي أعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع الحكاية ؟
ولا أسكت ؟ »

- أحسن شىء ، تكفى ع الخبر ما جور .. »

ترك عباس فراشه ، وسحب من تحت سريره حقيبة اسنادات
أركانها ، ومد يده يزيح أكواماً من ثياب مبعثرة ، ثم أخرج
من تحتها رزمة رماها على المائدة : « آدى الجوابات كلها .. أحسن
شىء تاخذهم أنت .. أنا مش قادر أقطعهم .. ويمكن يلاقوها
عندى .. »

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نحيفة من ورق رخيص ...
وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر ، وانتبه الرجلان
على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يلقى إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ،
فقد عبر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وألمه ..

قصة في سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهويزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متضجر ، ملتوى الفم ، قامى القبضة ، يتلذذ بشتمه وضربه بالكف على قفاه .. لا لأن عينيه تقع على ساقين غشاها القشف ، أو لأن أنفه زكمه رائحة كريهة تنبعث من جلياب أزرق قلر ، مرقع في نواح عديدة بألوان داكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الغجر الذين تطاردهم النقطة ، وهو يرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحلة . لا تقع يده على كتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان ..

الغجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الغجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يبعثها الارتباك فهي باردة مخيفة ، زادت بلاهة وطولا عندما وقع نظره على شاب جالس في ركن ، فرآه يتسم أيضا .. أشاح عنه بوجهه وقبع في ركن آخر ، وعهد إلى التفكير في نفسه ليتسلى .. لم يطل بجموده .. وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئا فشيئا شهوة التحدث . فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده ونهمته ، وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير ، فلذكر أنه يعرفه ، بل بينها نسب بعيد . فسأله الشاب :

— أنت بلدياته ؟

— أيوه .. أنا وهوا في شياخة واحدة .

— أنا سامع من العسكري يقول لك ياغجرى .. إيه الى ملك

على الغجر امال ، إذا كنت فلاح ؟

وزادت الضجة في حوش النقطة ، وسمع صوت البنادق توضع في « السلاحليك » ، وأحذية العساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داوزية » من ثلاثة خفراء ، وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة ، وضحكياتهم كلها . اقترب الغجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفي وحشة السجن ، ووسط الضجة غير المألوفة ، شب في قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه

بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

« كنت مستأجر من أخو العمدة ١٤ قيراط ، وكان عندي كام غنماية أطلقهم في الغيط وقت الربيع .. لما جبه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لي : يا عليوى ما ترحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة ولك على ياعم إني أبسطك خالص . قلت له : الطريق واعر على . قال لي : أنت واعى في الغنم وأنا مختارك ، أنت رجالي ، الطريق اللى انت خايف منه سهل . خلطك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشترالى مكين كويسة وادانى حماره ، وسلم لي ٦٥ رأس . فخرجت بهم من البلد والميه في الخوض علو قدم .. وفضلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى .. ! »

... وليس الحروف — رغم أنه حيوان غير نفور — بسهولة القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تجدد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يخلق) على السيارات المتتابعة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة ينزل في بعض الغيطان وراء كبش شارد وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يعطها ويصفر بها . ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها في قطيع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء ماء .) بعضها جاف

قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسمع فيه استغاثة لاشك فيها .
منها الأجنس الغليظ يخرج من حلق أبيضه السنين ، وبعضها كذبلية
وتر رفيع ، تبعثها أجمال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن .
كل سيرها وثبات جانبية ، وتناطح وهمى . يتطاير منها النشاط والمرح
فقطيع الغنم - هو الآخر - يحمل بين طياته السلسلة التى تربط
الحياة بالموت !

وخشى عليوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقيه ،
فتعالت مأماته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ،
ويضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألهمته الشمس ،
وذاب فى عرقه تراب كثير ، فهو متلاصق ساخن تحته أجسام
محمومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار ، وفتح كيساً ووضع
حملة . وكان يتبعه فى سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده
وإرادة تكاد تنطق أن لن يثنيها عن عزمها شيء . نعمة هزيلة ،
لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تحق تحت ولع الأم وجزعها .
ولم يكن مظهر عليوى ينبئ أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو
فق لا يزال فى ميعة الصبا ، قد لا تلاحظ العين أدلة ورائته الفرعونية .
من قامة مدبدة ، و صدر عريض ، إلا أنها لا تخطئ بحافته الواضحة .
فليس هناك تناسب بين قدميه المقرطحين وساقيه الرفيعتين . تحت
ترقوته هبوط غائر ، قد يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان
بارزتان ينهى عندهما شعر صدره المكشوف . وجهه من جلد وعضل

مشدود مها جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات ، ودرغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل في الوادى ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفن صم كالحرم . ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يبقى في ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء ، منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاه ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى — كفلاح . ولأنه يجتاز الطريق لأول مرة ، قليل الصلة بالأماكن التى يمر عليها ، لا يلفته إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشىء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة في منظر كربه تظلمه سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريط ضخم من التراب المكس ، مشرذم الحوائى .. يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويردد سطحه غير المستوى بين الضيق والسعة . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . من لعلوى بمن يخبره أن ليس كل ارتفاع الجسر من التراب . ففي أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عظام الفلاحين . وقد يكون فيهم بعض أجداده — الذين فتحوا التربة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة . وربما بأظفارهم أيضاً ! ! وكان يموت الفلاح فينال التراب عليه ، كما هو عطفه ومعوله ، وجلبابه الأزرق الوحيد .. أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم . وما على جلودهم من أثر الكراييج .

« ... في رابع يوم بعد أذان العصر بشوية ، حصلت نزالى بجانب
و كنت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغنم فى صنبو ، لكن ما عرفشى
ليه اللى خلانى أوقف الغنم قدام البلد دى ، إن قلت كنت تعبان
أكذب .. يمكن علشان لقيت على الجسر و ابور طحين خربان .. »
فقاطعه الشاب فى لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل للحديث
طفل .

« ولا قسمتك جات كده .. »

وكان الشاب لا يزال يبتسم . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب
فيه منظرأ مسلياً .. فمذ شعر أن عليوى يؤاخيهِ . وهو يحتقره وكلما
قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سروراً ..

« ... ربنا عالم .. أنا ما صدقت لقيت للوابور سور كبير ،
رحت صافف الغنم جنبه وقلت : الليلة دى تنهى بالنوم ، ولا حدش
يهرب منك وتفضل تجرى وراه .. واستكنيت .. أدنت العشا ، بجيت
جنب الغنم وقلعت جلاليتى وحطيت راسى على دراعى ونمت .. لسه
عينى ما دخلتش فى النوم إلا ولقيت جماعة جاين على من ناحية البلد
وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة غجر
قلت أعوذ بالله من دا حظ يمكن ياواد يفوتوا طوالى .. وقمت ركنت
نفسى أشوف ليه اللى ح يحمل .. جم حداى ووقفوا .. وشويه لقيتهم
فارشين حوالى .. »

عند رجلا إلى الحمير فأنزلوا منها أستاراً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان .. ودقوا أوتاداً ربطوا فيها معيظهم ، وأخرجت امرأة « حلة » وجلست تفركها بالتراب ، ثم ذهبت إلى التربة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً في حزمة ، ثم قردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها وبعد قليل انتشرت رائحة الشاي ، وانتبه الغجر لحاوهم « وواحد منهم قال لي : اقضلي اشربلك فنجان ويانا .. قمت رايح وقعدت » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاي ؟ »

— « ما انت عارف الفلاح عييط ، ما يقولش في عزومة لأ . لكن أقولك الحق إلى نخت .. كل الحكايات في بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما تجيش ع البال . أنا قلت في عقل ياواد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت ، فضلت ثروح وتيجي قدامي ، مخدتش بالي منها إلا لما شفت الرجالة مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلا كله بشخط ونظر . ساعات ترد وساعات تمشي ساكتة . ما عرفتش عملت فيهم إيه لأنهم يشتموها من غير ما يسمعوها (يا مجنونه ! ح تشوفي .. ح نوريكي) . بقيت بعد كده كل ما تفوت قلامي أبص لها . .. فوجدتها فيها وجهاً شديد السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطة خضراء . وعلى ذقنها وشم غص . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر ، رأسها كثير الالتفات تنبيء عن عصبية قوية ..

وكانت تخفى غضبها بضخمة ظاهرة على شفقتها زادت بها طولاً وضموراً
ولما جاءت تناول الأقداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه ..
خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند (١) ولم يشعر علىوى
إلا وهو منطلق في الحديث ..

« فضلنا نتكلم .. وفضلوا يسألوني عن الغنم : رايح بهم فين؟ ومعاى
كام ؟ أنا خمت يكونوا بيسهوني عن حاجة والا ملعوب . قلت
قوم حوش عن غنمك . رجعت مطرحي مقدرتش أيام .. يادوبك
عينى بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على لبح الكلب . وأبص ألاقى
غنمى متفركة قدام ثلاث عساكر ، خيولهم عينيها في الظلام زى الشرر
لسه فاكرهم لدلوقى .. بقيت مخبول أجرى وأقع .. كل ما التفت
ناحية العجر ألاقى العسكر نازلة في الخيام هد ، والنار انطفت وبقت
دخان . وسعت الشتمة نازلة فيهم : « يا حرامية .. يا خطافين يا ولاد
الكلب .. » ذراعاتهم تهتر فوق رؤوسهم ، يزققوا : « فى عرضك
باسعادة الشاويش .. » ولا كن ولا فايده .. لموهم كلهم فى
سلسلة وأنا فضلت أجمع فى الغنم ، اغاية ما حملت ربنا وانلميت عليهم
رجعت مطرحي ، جيت أشيل الجلاية وأتام ، ما أبص إلا والاقى البنت
الغجرية مكومة نفسها ولا زقة فى الحبيطة أقولك الحق ارتعشت من الخضة ،
ياخبر اسودا ليه التهمة اللى جبالى دى ؟ ا

— بنت إناب هنا ؟ ليش جابك ؟ بتعملى ليه ؟

(١) نبات عطري يستعمل للبغور .

شاورت لى بصباها .. لغاية ما بعثت العساكر خالص اترمت
على وقالت لى :

أنا فى عرضك .. دول كانوا عاوزين يموتونى .. فاكيرين
أنا اللى دليت عليهم فى سرقة القوصية ، حبسونا كلنا . وأول ما طلعم
سرقوا تانى .. فى عرضك خدنى وياك .. مطرح ما تروح أروح ..
بس أبعد عن الناس دول ... »

ومدت العجورية ذراعيها وتعلقت برقبته لم تكن ترتعش ، ولا كانت
سريعة التنفس ، وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفقتها فبانتا متضخمتين
وانفرجتا عن سنين كبيرين ، وتركت عينيها مسبلتين ، لعله التعب ،
أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى ، ورعا أيضا لانه لم يشم من
قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب .

سواء كان هذا أو ذاك ، أحس عليوى بقواه تلوب بين يديها ،
وترأخت ذراعاها بجانبه .. وعادت للذهنه صورة هذه المرأة وهى تمر
أمامه عندما كان يشرب مع رفقاءها الشاى ، وتذكر لفتات رأسها .
ولم يكن يدرى وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفتات سحابة
عجيبة وسحر قوى .. وطال صمته ، يعطله ضميره بأنه من آثار
تربيته التى علمته منذ الصغر أن يرهب الفجر ويخشاهم . ولكنه لم يرد
ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر
فى جبهته ، ويجف فى حلقه ، ويرتعش فى قلبه . واجتمع هذا وذاك على
ملء حروقه بدم يغلى ويطن فى أذنيه .. وإذا بذراعيه على ذراعيها
يتبادلان ضممتها ..

وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقرب منه شيئاً فشيئاً .. وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد .. وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها للذة حريتها في ليلتها الأولى . ثم ما إن بادها الرجل ضممتها ، حتى انطلقت من مكمنها رغبة قوية طالما كبثت فكانت في انفكاكها هوجاء .. ولكنها حريصة على نفسها إلا تفنى سريعاً .. فهي تضغط على حديثها وتغطي عنفها بستار من الاتقاد واتزان الخطورة .. وجعلت كل همها أن تعطي للرجل ما لم ينله من قبل وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع .

وكانت وفية على فمها تلمع في نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للغريزة جسد وأشرفت عليها ، لهرت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من أغلب الناس بالعبارة الملتصقة المتسريلة في الحياء والخفر ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفي أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ويدعوونها أن تحمل بهم من غير شريك ..

ولم تطل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنهت لموقفها فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة في سور الواوور ، وشعلها الظلام .. وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده ..

... « قصره بيتت معاني الليلة دى .. وقلت لها : يا بنت الحلال أنا أخاف الله .. وأحب حكم الشرع .. قالت لي أنا وهبتك نفسى .. قلت لها : وأنا قبات ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كثير

يجوزوا في البنادر بالوهبة ..

قال له صاحبه :

« - لا كن مش ع الحس .. ومش مع الفجر - ساعها ما كنتش دارى بنفسى » .

... لا يدرى كيف نام وهو يسوق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو من المسوقين أمام قدر لا تفرق عصاه في دفعها للأحياء بين بنى آدم والغنم .. ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فانقاد لها كأنه متعب ، يجحد بعد جهد فراشاً وثيراً .. وترك عليوى نفسه ترتاح وتستند إليها .. لا يهمه وهو في هذا النعاس الموصول - أى قيد غلته به .. ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه - ولا يستطيع بعد ذلك كتمانها - لن يجحد في غيرها مصباً يتدفق فيه ويزخر .. ونسى عليوى من أيامه ما مضى ، وقصر همه على الساعة التى هو فيها .. وفي الصباح كان يسير وراء القطيع وهو لا يزال مدهوشاً ..

... « مشينا تانى في الفجر وأنا مدروخ .. حصلنا ديروط .. لا لا ... نسيت. بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتوش .. رجعت أدور عليه ، لقيته جنب شجرة بيطلع في الروح ... » راقداً بمؤخره على الأرض ، رافعاً راسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتز جسمه متشنجاً وحدث الكلب في صاحبه ، ولمعت في عينه لحظة بارقة أمل ، ثم أطفأها سريعاً حزن عميق صامت .. لم ير من قبل حيواناً تبكى مثل عيني الكلب الحامدين ، وكانت تكلمه وتقول : « هل هذه آخر مرة

ترانى ؟ ، وفتح فمه .. ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً .. وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لئرج ، تنبىء عما فى جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد .. لم يفهم عليوى سبب الحادث .. لعل أحداً من الناس ضربه .. وكم من فلاح يضرب الكلب الغربى بقسوة ، أو لعل صبياً قذفه بحجر هذه الشهوة التى تتمثل بها أول فكرة إجرامية فى رأس الطفل .. ومد يده بتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم .. وشعر بالغجيرة بجانبه .

« جئت قعدت جنبى تنفج . بصيت لها قالت لى : « سموه .. كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وانت نائم .. جم أجلم قصير ، وراحم فى داهية . ما ترعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلشان نحاطرك أنا جيت لك منهم معزتين هما دول اللى فى الوسط . قتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لى : لا ، بتوعاتهم .. » فقاطعه الشاب من جديد .
— « أهى غنيمة وجاتلك بلاش .

— لا والله .. مارضيتش أبداً اتخدم لكن أعمل إيه . . . »

إن استطاع كلبه بين يدى الموت أن ينبج ، فليتكلم هو بين يدى التى سلبته عقله .. ولم يكن شىء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الالبسامة الخفيفة التى تمشع على فم الغجيرة ، تقابلها تقطبية ظاهرة على جبين الفلاح .. ونخفت رعدة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته ، وتجرأ الذباب على فمه وعينه .. وقام عليوى ليعود إلى قطيعه ، وقد تنازعت حسرة على كلبه يتركه وراءه ، ووجل من

المعزتين تسيران أمامه ، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه في حياته
وهو الذى عاش طول عمره يرهب النقطة ، ويرتعش أمام العملة ، يحيى
المساكر باحترام ..

« من أول يوم لقيت الغجرية شاطرة .. حوشت اللبن الذى تحلبه
وباعته ، وكنت الأول أحتار فيه ، وفعلت لى كام حمل ! وخيبت
على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسي
بكره ياواد ترجع لبلدك وتربي غنمك ، وإن كان معاك واحدة شاطرة
زى دى ، ليه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عنك وتسرح بهم !
بكره رزقك ياواد بتسع .. وربك كريم .

« بعد كام يوم حصلت ملوى ، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور
رحمت سايب فيها الغنم ، وجيت حاحسر قبالة قهوة وقعدت ..
البنت غابت تحت مع الغنم .. كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت ..
ما اعرفش جري للبنت فيها ليه . انقلبت على فى الصبح قلبه واحدة .. »
نزلت الغجرية تجول بين النعاج بخطوة بطيئة ، لا شىء يدعوها
للبقاء مع القطيع . ولكن لا شىء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .
بدأت تمل معيشتها الجديدة الواضحة تسير فى طريق معلوم وعادت
نحن لتجوالها القديم . كل لذتها أن تطارد من بلد إلى بلد ، ولا تزيد
صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة ، ولم يبق من عليوى سوى
رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيئته . ولكنها مع ذلك تندم على حياة
نصفها عجة ونصفها عداء . فالغجر أنايون لا يقبلون الغرب بينهم .

وقد ظلت تخضع الرجل منهم ، لا عن حب بل عن اضطرار ، وكانت تجد لذتها في الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها .
وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يفرقها تيار ينسبها حقدما . على عظمه ١٢ وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة ، أما الآن فهي تخضع ، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبته . لا تعرف لذة الشبع ، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى ، ولكنها كانت تمنى لو كان من العجر .

قطع تفكير العجيرة نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبنت لها قهوة في وسطها - وتحت المصباح - دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد .. فتسبت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبوزيد إلى الأطلال .. وتوالت صرخات الرجل ، تبدأ عندها مهمة الخالسين . وكلهم أصاخ بأذنه للقصة وللأشعار وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيد لها اختناقاً حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء فى ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر عشة خفيفة .. هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بربابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جائم .. هل الليل جثة

النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت !! أم العالم في أسى ،
لأنه يشعر أنه يفنى شيئاً فشيئاً !! أو ربما كان من تأثير العكاس
ما يحول في هذا الفضاء من آلاف الأرواح الشرقية التي خلقها الله
حزينة موجعة القلب !! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظللت الشمال .
عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والجلل ، وأصبحت هزة
النجوم رقصاً !!!

وثقل هذا الجو على الربابة . فهي تئن بصوت متشابه . ووقف
العالم كله في ناحية ، والربابة في ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ،
وأفصى كل منهما للآخر بأسراره . وبلغ تأثر السامعين بالقصة ،
أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة
يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت الأزمته في أذهانهم ،
لا يدرون أهو الذي بعث ليقص عليهم وقائعه ، أم هم الذين نقلتهم
يد سحرية إلى عصره السحيق !! واختار الشاعر قصيدة يعلم من
تجاربه أنها تؤثر في السامعين . واختتم بها ليلته ، وكان آخر
ما تغنى به :

على ما جرى يا ويح قلبي لما جرى واليهن قيدني بستة قيود !
مما جرى لي من هموم تكيدني وقت إيش يا ذاك الزمان تعود ؟
نطق لسان الحال عن الدهر قال لي : زمان مضى ما عاد قط يعود !
يا عين ! إليك على الزمان اللي مضى وأجرك على الله الواحد المعبود !

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره
سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا
ولاً كيف تكلم عما في ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها
واستمع لشكواها مراراً ١١ ودمعت عينها - ودموعها غزيرة
على كره منها . ثم استيقظت حذتها وشدة مراسها ، وكبت همومها ،
وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التي تشاغلها في الأيام
الأنحيرة .

• صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلاليتها تحت باطها .
كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طوالى إنها هاربة منى . . رحت
جاردى وراها ، حصلتها ومسكتها من ذراعها :

— رايحة فين ؟ .

— ماشية . .

— ماشية فين ؟

— مغربة للجبل . يمكن أتلّم على أهلى هناك . .

— لوحلك ؟

— أيوه ، خلىنى فى سكتى وخلىك فى سكتك .

— يا بنيت الحلال ، أنا قلتلك إن الغم مش بتوعى ، صاحبهم
فى المنيا ، وبيننا وبينها دلوقتى حركة كعب ، وأنا راجع وياك طوالى
للبلد .

راحت قايلالى طوالى :

— تغور بلك باللى فيها .

حلق الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غصبة الفلاح يقبل كل
شئ . ولا تسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت الذى يتحدث عنه ،
كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تُر الإهانة إحساسه ،
فبلمها . . واستمر عليوى فى حديثه :

— « قلت لها :

— بلاش نروح للبلد . طب نروح مطرح ماتمجي .

— تعال وياى .

— والغم ؟

— هاتهم معاك .

— مش بتوعى ا

راحت لاوية وشها زى الى زعلت من الكلمة دى . ومشت
تانى ، وقربت تغيب عنى .. كل دا والشيطان بيلعب فى عقلى » .

وقف عليوى وكل عرق فيه نابض متيقظ ، أسكرته حديثه
فطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرة على القطيع ،
ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يتقسم له .. ثم هوت كفة
المرأة ..

.. « ورحت صارخ فيها :

— هوى .. هوى .. أنا جى .

وجريت للغنم ، حاودتهم من ع الجسر لصليبية مغربة للجبل .
ومشينا مش عامل للدنيا حساب .. وما نيش عارف أخرنى ح تكون
ليه ..

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبة .. كنا فايقين على عزبة ،
لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط .. راحت البنت طلعت من جيها
خيظ طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمها قدام الفرخة ،
راحت لقطاها .. ووقفت فى زورها .. قعدت تحك منقارها فى
الأرض ، عايزة تصرخ مش طايفة ، والبنت سحبها شوية شوية
وحاطتها تحت باطها . وتوما بعدنا عن البلد دبحتها .. حصلنا الجبل ...
— استنى .. مين اللى أكل الفرخة ؟
— أكلناها سوا .

— واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟
— أنا عارف .. دى كانت نازلالى بالسهم .. وأنا بقول ياسابل
سترك ..

— أيوه .. اللى يسرق خمسة وستين رأس يزور فى فرخة !
فصمت عليوى وارتفعت له تهديدات طويلة .. وكان القمر
قد غاب ، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة
بصيص من مصباح معلق على بعد ، وتوالت دقائق أرجل الخيل
قوية على الأسفلت ، ونهق حمار بجوارهم . ثم هداأ الجو من جديد ،
وعاد عليوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنانه لزميله ، فكان

منكمشا في نفسه يقتضب حواذله .. لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان
يتذكر بجهد بعض ما جرى له ...

.. « قابلنا في الجبل جماعتها .. واختلت بالكبير بتاعهم شوية ..
الله أعلم اتكلموا على ، وشفقها بتشاور على الغنم ، والراجل بيص
وياها زى اللى بيعدهم ... مشيت وياهم .. بعد يومين ولا ثلاثة ،
لقيت الغنم نقصت راس .. الحق دمي فار .. مسكت البنت وقتلتها :
اللى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم .. »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض .. كل حاجتنا
ويا بعض . »

قلت لها : « غجر مش غجر أنا ما افهمش الكلام دا .. »
راحت لاوية بوزها على وقعت ما تكلمنيش . جيت لها بعد يومين
وقتلها : يابنت الحلال أنا بعت أهلى وشرفى علشانك .. مالت لى
تانى ، لكنها كانت بتطرخم على .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش
على غنمك الغجر ما يسرقوش من بعض .. برضه ألافى الغنم كل
لما تقرب على سوق تنقص راس ولا راسين .. كذبت على .. «
- « هى ما كذبتش عليك .. أنت عامل نفسك غجرى ، وهما
مش عاملينك .. علشان كده يسرقوا منك .. دانت نهية لهم ..
نهية حلال .. »

« - صفصفت الغنم على عشرة .. على خمسة .. قلت ديده
ياواد ؟ ح تطلع بلبوس والا ليه ؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل
دما وطنين ... ٩٧

الفجر ، ورحلت جارد الى فاضل ، ومشيت للسوق بعثهم وانفضيت .

— « استغفلتهم ؟ هما الغم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخذوني هيله بيله وسرقوا .. وسرقنا سوا ..

كيس قطن من غيط .. امبارح بالليل مسكونا .. » .

وكان لابد أن يتلوق عليوى بعض ما يلقاه الغجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين . . . ولكن صحبة الغجر جعلته يستقبل الشتم والقيد والكر باج مطمئناً . . . منذ سنة شاهد ماجرى للغجر . . . فكان جزعه — كمتفرج — أكثر منه اليوم ، وهو مضروب يسير مكبلاً بالحديد للنقطة — . سنة مرت عليه لم تفن من عمره قدر ما هدمت من أخلاقه وعماداته . . . كان فلاحاً يهيمه النيل والعمدة والنقطة وحلود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لا يهيمه سوى اليوم الذى هو فيه . . . الدنيا كلها أمامه لحدود لها . . . إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف . . . وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟ »

— البنت ؟ لا يرخصه هربت .

- على الله ماتلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .
- لا . . حلاقه منين ؟ أنا تو ما اطلع أخرج أدور عليها .
- لم يسخر به الشاب هذه المرة بل ثاءب وتمطى ، ثم رقد على الأرض . وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ،
- هذا الموال :
- تقدر نسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . . ساءتك
- ولا جابت المعروف الكاس دوتيهلاك . . وسقتك
- ولا رفعت عليك عصاية وقدامها . . ياميت ندامة ساءتك
- ليلي ليلي يا وعدى . . .

أبو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) «شحنة» المساجين الذين قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضايق الشارع بحلقات الأهل والأحباب تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدي لا يزال مكانه . ليس في المساجين غيره من بنى شقير . لم يكن في انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله اسماعيل ، وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عندما زاره في طوره . لم يكن مبتسماً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل اسماعيل حي أم ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحمير والسائرين ، يلاحقهم بنظرة خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الدهول فمه إلى أذنيه ، ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابلور الطرزي حتى وقف من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص

حول قلة . جاءت فوقها تغطيها بملابسها وقعدت . ثم قامت ،
فإذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة
وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل : المتفرجون : أين
وضعتها ؟ والراقصة لا تزال على شغلها وتقصصها . تملأ الجو برنين
الصاجات .

وخرج من الواهور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على
رؤوسهن قفف . كبيرة لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن
المنتظرات بزغاريد عالية .

في هذه اللحظة لمست كتفه امرأة . لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف
بجانبا ، ولكنه في شيء من الإلهام بادرها :

— « الطحين ده لفرح من بنى شقير ؟ »

.. أيوه .. انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟

— « هو أنا .. النهاردة بس خرجت » .

احتاط الشقراوية بيلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم
لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد في ثوب خاق ،
حادثته القديمة .

نجاسر عامل في محجر أبو فودة ، أمل أبيه الرجل الطيب الشيخ
مبارك . ولكن نزع الشباب يقوده في معظم الليالي لمنفلوط ، يصرف
وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المتستر

أمها العرجاء . هو في الحبل شرمس ، شكس الطباع ، يعجب بقوته
ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم
عن الدائرة والقرفصاء - كان هو بدون مجهود واسطهم ، وقامته
تعلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح الحجر ينتظرون المعدية . كان
الحجر في هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر
يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على
الحجر انتهت بهربهما . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه .
أىكون أقوى من هذا الحجر الذى يرويه أمامهم ؟ انه يراهن من شاء
منهم أنه يرفعه من مكانه .. وقفوا حوله . ومال جاسر . وباعد رجله
واحتضن الحجر ، يتأيل على الجبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه
ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانخفض نقضة كتبت نفسه ،
فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته ... ولكنها ماتت في جسمه ،
والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكىء لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار
واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف
في المؤخرة صغير الرأس ، أعنى ، أذناه لاصقتان على طرفى قفاه .. وأردف :

« إذا كانت حميدة هي اللى أخلفت قوتك ، احسن تسبب

الحجر لراجل .. دا تقيل عليك .. »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان
جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان القادم في

يد جاسر ، أم خطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشيرة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوت حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم يتزف على ستر من مخه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عندما نفدتها مسهم يحيطون بجاسر يهثونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين : حاج يعود ، أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها . هي التي لا تبخس قيمة الطليق عندما يعود .

وفوق ذلك . فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الذين يعرفونه منهم إلا بصعوبة فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين ، وإن كان محنى الظهر قليلاً ، يمشى بهد الأرض . وأمامهم رجل في ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه ، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوستا .. مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلاً .

وسار الموكب بأناشيدة ، وجاسر في المقدمة . قد ولدت له الابتسامة ، فإذا هي ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة . وجهه يتهلل عن بشر صادق . في نظراته لهذه تمتع ورضا لا ترى إلا في عيني طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حريته وحذب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً ها هو —

من غير أن يحسب - يعود لبلده في زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين
الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . يذكرهم في سره ويضحك .
فأكل طبخته ، خير فكاكة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكى ، مها قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن
وحشيته في طرة ، يصبح في مثل هذه المواقف حيواناً كامل الإنسانية
يرق قلبه ، وتفتح نفسه ، ويقبل على الضحكة بشغف ، ولو وجدته في
أضيق المواقف .

جىء من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن وجد بجانبه
شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جزجياً أو طباعاً . سأله
الشاب :

« طلعت بكام .

خمسناشر سنة .. أشغال شاقة .

في طرة ؟

في طرة ولا أبو زعل .. زى بعضه ..

ح تنحت الحجارة في الجبل طول النهار ؟ ياخير أبيض الله يكون
في حوتك .. »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة
التي تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهويسير في رأس الموكب .
الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون
لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها ، لم تمس روحه . وها هو يعود كما

كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن بعد هذا الغياب ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بن قدميه والأرض من نضال .

ويخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بذراعيه يجرى إلى ابن عمته . شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الخيران تشعل منهم دستاً ، (١) وأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف ثمن رأس سكر ، وخرج يسقى الشرابات للجيران وقد تجمعوا عليه يهتونه هو .. في سره يقول :

— « أهى مصيبه ونزلت على » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوايه وأغلقت الأبواب ، وهدت أجسام أضناها الشقاء ، ونعست جفون . ولما هدأت الضجة ، سمع في قلب البلد نواح ضعيف ونهبة .. هي أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد مناحتها .

ثغرة في جدار الحوش السماوى تصل منزل إسماعيل برحبه مسورة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسته . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت . لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

في ركن منها مسقف بالحريد ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملاً ومسكناً . وفي البلد عرف ، لا يقر منزلاً يجمع رجلين وامرأة ..

(١) التام - اسطواني كبير .

فجاء إسماعيل بحزمة من البوص في قامته الرجل وسد بها الثغرة وحلوق
الجيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن في قلب إسماعيل
يقيناً بأنها « مصيبة ونزلت عليه » . ماذا تفعل في جاسر حزمة البوص ؟
هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتها ضدان . مال جاسر
إلى الخمر ، وعمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف (١) خشونه الأول
جهرته منذ الصغر إلى المحجر ، وأتلف الثاني ما تركه له أبوه وهاجر
من البلد . رأى جاسر في إسماعيل أنه صييط خام . ويشكو إسماعيل لكل
من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيته لخاق الله ..

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لكان عليه الأمر . فهي امرأة
(محرؤية) يعلم الكل عنها أنها (نتاية) ، أكثر فهماً لطرق الإغواء
للرجل من فتيات البلد . يقولون أنها سبب فقره ، لأنه يجرى وراء
ذيلها ، ثم يحصلونه في الوقت نفسه عليها . في ضميره وسواس
دائم أن هذا الحسد ينحني تحته نوعاً من الاحتقار ، كأنهم يستكثرونها
عليه . إيمانهم بأنه تحت قدمها ، هو الذي يقلل من الإشاعات التي
تصل إلى أذنيه عما تفعله ، من وراءه . وهو الآن لا يستطيع الثقة
بإخلاص زوجته ولا بعفافها ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل
امرأة خليعة . إذا كان يهاها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساقعة دأمة
للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يبيط عليه في وقت توقيع الحجز

(١) نوع من التبغ المخلوط بالسسل يسمى في الجزيرة .

(على بياضه) (١) وغرقه في الدين لرقبته ، وحرصه على ربيع
فردة ، بقيان مع المش والبصل أوده .

ظل جاسر في أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص ،
فقد انخل من ركنه منامة لا بأوى إليها إلا مع الليل في أول أيامه أخذ
يتجول في البلد والغيطان ، وزار منفلوط مرات متوالية . ثم ترك
ذلك كله و (تزين) على دكان خليل ، حيث وجد من العجائز وبعض
ضيق الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقداح شاي معكزة كالخبر .

في هذه القهوة سمع عن خيبة إسماعيل في زواجه من هذه البجراوية
هو رجل دهايف ، لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئاً ولا هم يعلمون
ولكن ليست على عيونهم مثل حذيه غشاوة . ماذا تفعل في البيت يوم
السوق ؟ إنها تزوج من وسط بلدياتها وتحتفي من أول النهار لآخره .

أخذ جاسر — وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه — يسارق لرؤوس
النظر . لها مرات قليلة تروح وتغدو في دارها . ثم رآها تسير يوم
السوق وقد شلت طرف طرحتها على نصف وجهها ، ولكن العين
الوحيدة التي وقع نظره عليها كبيرة واسعة . متلفتة ، تهوب ما حولها
في لحظة ، وتفهم التيارات الموجهة إليها في غمضة .

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى
الغيظ . ودخل الدار فوجدها بجانب الفرن . شفته السفلى متضخمة قد
تللت ، وعيناه جشعتان :

(١) الزرع في الحقول قبل جبهه .

— « صبحت بالخير يا نرجس .

— صبحك الله بالخير .. ابن عمك نوبه طالع للغيظ » .

الحوش « ماوى يكشفه الخير ان . فاتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحذرة ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير في مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائية عديدة كلها في ألوان مبهرجة ، ترينها دنثلا وشرائط وتطريز وزركشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهي أبعد ما تكون عن القروية الرعيدة التي لا تخلو مع رجل إلا وملأت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه ، وأن الانتصاره عليها لا يتوقف على إرادتها ، بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له نعيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تنهى دائماً بالخضوع ، وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشارك في النهاية فيما أكرهت عليه . فهي تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها مطلقاً شهوة ، لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بعد — من شهوته دائماً بحيث لا تخبو لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطى . وكان وجه جاسر أدكن اللون ، يفيض من عينيه خبث غير جبان .

— « يعنى خبت يا نرجس في السوق السبت اللي فات ! ! »

لم يكن استفهاماً ، بل لهجة انتصار تحتها تهديد ..

— « عبال ما بيعت الفروج . . . »

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها فهي تعلم أن تطلع جاسر
لهذه الأثواب سيور عليها ، على أن أحداً من أهل البلد لم ير هذه الملابس .
حتى ولا أحب جيرانها إليها

وضحك جاسر بهلوه وكأنه يهمس لنفسه

— والله إسماعيل منهي ١١١ —

وجلست نرجس تصف الملابس في صندوق أحمر . . هي
ثروة لامرأة لا تبدو في الطرق ، ولا يراها الناس إلا في جلاب
أسود يهبط إلى قلميها ، أبيض الذيل يكنس التراب ، فرجس تموت
على ثوب جديد ، لا تفرط في جلالية مهملت أخلب هذه الملابس
من أيام زواجها في بلدها (موش)

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة (١) ، يعمل لدى أحد
المقاولين ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار
خلاعتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها فهو بعد تجواله في
مصر والشام لا يقنع بامرأة من بلده في هذا الوقت جاءه تعويض
السلطة ، وأخذ يصرف إيجنيه وراء إيجنيه حتى استلقت نظرها .
فتحايلت على زوجها إلى أن طلقها واندلقت على إسماعيل وقد بهرت
ثروته . تزوجته ، ولم تلبث يدها أن تفضت جيوبة في شراء ملابس من
كل صنف ولون وانتهى العمل ونقد التعويض ، فعاد إسماعيل لبنى

(١) لفظ كان يطلق على الإدارة العسكرية البريطانية التي كانت تصيد

الفلانين لتجهدهم في ليلق المال في الحرب العالمية الأولى .

شقيبر يرتزق من إيجار غداين ، يعيش عيشة فلاح لا يعرف النقود
إلا وقت المحصول

في أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم قدرتها
تحمل الفاقة التي وجلت نفسها فيها فاسترضاهما إسماعيل جهده ،
وحرم نفسه من كل شيء ليجد ما تشتري به « الكستور » و « البرنسي
عزير » (١) وجاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد
سوى جلبابه الأزرق يعيش صدره ويرقع ظهره مرات . وعاشت
زوجته بصنلوقها ، لا تتنازل عن مطعمها أن يزيد ويفتنى . توهمه
أنها تشتري بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيته

والحقيقة ، وهي البحراوية المخربة ، كانت لأجل هذا الصنلوق
تفرط في نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخضر . وتوصلت
على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين ولأجلهم كانت
إذا خرجت تلبس في قعر قفها - تحت البيض وربطة الكتاكيث الجلباب
الذي يروقها بعضهم يقنع به وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ،
ويأنف من ثيابها وقدميها . فيحميها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهي تباعد ما بين جريمتها وبلدها ،
وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفيء عليه
ماجور ، وفاحت رائحة سيرتها ووصلت في بلدها إلى أنوف نخلقت
تلشم الجو .

(١) نوع من الأقمشة النسائية الشعبية .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر يدها وأراد أن يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انفلتت منه وكرت إلى القرون فتبعها جاسر ومال عليها يقول :
« حرام عليك .. أنا بقي لي خمستاشر سنة .. »

واستند على الجدار ، وشعر بشيء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال رقاده ، فلما هم يقوم لم تسعه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال في (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء .. وجسمه كله يرتعش .. ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه بيدين متصلتين .. وتملكته هزة متكررة .
نوبة تشنج صرخته . . .

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها في أذنها ويتسرب إلى أعصابها . وعادت إليه تهم بصب الماء على وجهه .. ولكنها عدلت .. لا يزال هذا الشخير يأسرهما لا يعلم أحد ما الذي أثار في ذهنها .. لعلها ذكريات حوادث قديمة .. كانت فيها عبدة قن (١) لحسمها .. في أول شبابه كانت تسكر في بعض الأحيان من عرق البلح وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتي في حلقها ..

ألقت الماء على وجهة فشقق .. ورفع رأسه ، فاذا ببصره يقع على عينيْن كلها خضوع واستسلام . ربما سحرها ما رآته من القوة

(١) العبد إذا ملك هو وأبواه يستوى ليه الاثنين والجمع والمؤنث .

تتفجر وتصرع رجلا. وربما كان ما، أنه في حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة .. من أجلها هي .. ولكن لا هنا ولا ذلك إن هو إلا قدر محتوم يهبط على التلالتق ، في حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ومرة موجبات ، وما هي إلا نغمة من نغمات الكون في دوراته .. ليس للإنسان فيها إلا ما للشقب في صغير الناي .

وقام إليها ، وماتت يده على معصمها . جرحا معه . لا يزال مخي الظهر ، خطواته سريعة ، وأغرب شيء فيها أنها قصيرة ، شيء مخي بشد قدميه الواحدة إلى الأخرى ..
وسترهما ظلام الغرفة .

.

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عام ينام إلى الضحى . ويقضى مسجاة النهار بدمكان خليل . لم يزد أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنبته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرية .

لكن نرجس أشعلته ، رده فربها إلى ماضيها ، وأزال عنه نقابة السجن . وإذا به في اليوم التالي لا جتماعهما يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره ، ويجد في سيره كأنه في يوم من أيام شبابه .. يسرع كمعادته كل صباح ليلحق المعديّة . خمس عشرة ستة مرات كحتم ليلة 11 الهوة التي فغرت فاما في حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتي أوسع الشفارات .

ليس في الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية
تغوص فيها قدماء الثقيلتان ، ويجاهد بهما - وهو مسرع - يساعدهما
بحركة من كتفيه ...

بعد برهة وقف ذاهلا ... لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات
قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة (١) تقرب من البلد أو تباعد عنها بمسافات
لم يلاحظها جاسر ، لآلته ليس فلاحاً تهتم القصبة والشبر ، بل لطول
مجاورته للنيل وتعوده على تصارييف هذا المخلوق العجيب ، كحارس
الأسد : يسمع أنخفت همس المتفرجين عن البقشيش ، ولا تحس
أذناه شيئاً إذا زأر الوحش من على كتفه ..

ولكنه في هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت
سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . في خمس عشرة سنة
أكل من بني شقير مسافة رحبية ، كان جاسر يمشيها في أكثر
من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة »
جير تحترق ويظللها الدخان .. أمامه قلوغ بعض المراكب يسمع ضوضاء
الحالسين فيها .. ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صفير ،
وللنيل تحته دمدمة خفيفة .. هو في عز قيضاته ، يطل عليه كالشيخ
ناشئ من طينه . الطبيعة سواء في الائنن ، ليست الشهوة قاصرة على
الحى .. كلاهما يزرح تحت عبء فورة واحدة ...

(١) ميناء القرية على النهر

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام
طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفثيه ،
من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وئدى مصر قد جف . فيه لهيب كله
نداء للارتواء . والطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى
الميعاد حتى تنفض مصر . تحس الرشقة تنقلب قبلة حارة تنفجر بها
شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا
هو عملاق يذ تشد شعرها . ويد تهصر خصرها ، ثم يطويها تحته
فتغيب . كساؤه لها من ماء طحينى ، له فى وسط الوادى هدير ،
وعلى شفثيه رفرقة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، وتحيا كل
عين ، ويفور من البلاليص ماؤها العفن المدود .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا .. هو لا يجهد حريره إلا مع الفيضان ،
فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه .. الحسور يجانبه الغمامة
تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده ..
يقرب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً
واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله
مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ،
أو تحايل واف ، يخلق الجزائر ، ويبلغ البحيرات ، تملأ حلقه سدود
من كثيف النبات فلا يفص ، وتخدعه مستنقعات فى التيه نهايتها
فلا يضل ..

كل هذا كذب .. في الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال
شاباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف الدوامات إلا من دمه الفائز .
له في كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص
فريسة لا تشبع لهما .. للشواطئ منه عبث البحار .. وها هو
مع بنى شقير ، في سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفي سنة يسترد مديته
ومعها أجراها مضاعفاً .. في خمس عشرة سنة أغار على أرضها
يأكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التي
أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتألت رثاه وزاد تنفسه عمقا ،
وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر يبرز من وراء
الحبل ، رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف
لحظة يحدق في أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .

في طريقه إلى المعديّة التي جاسر السلام على رجلين جالس على
الأرض ، ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحي أحد مستأجري محاجر
الحكومة ، كر راجعا وجلس أمامهما ..

— يا عم شعلان ، أنا عاوز أرجع للشغل ، خليني وياك .
أنت أحسن من غيرك وطيب .

— أمال انت معدي لمن ؟

— أنا خارج لسه على باب الله .. والحمد لله الى قابلتك .

— طيب روح النهاردة اشتغل في نمرة ٦ ، ولما تشوف شغلتي

الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك ينوك
العدة اللي سابها الواد على . »

وقام جاسر يلحق المعديّة فالتفت شعلان لزميله يقول . :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه .. أنت صحيح ما تعرفوش . »

وبدا شعلان يقص قصة جاسر . استمع لها عبد المسيح بهدوء ،
لا يلفظ بحرف ولما انتهى أقبل على حجر صغير في الأرض وأخذ
يلعب به .

عبد المسيح — خفيّر الحجر النظامي

عبد المسيح — خفيّر الحجر النظامي — هو صاحب الطربوش
الوحيد في الجبل ، يرى فيه كالغريب الضال . جاء لوظيفته بعد
أن ترك خدمة الجيش توّأ . لم ير حجر طوال حياته ، ولم يعاشر
حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، وديانته
تخالف أغلبية سكان الجبل — فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار
الحجر ، وأنواع الحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص " الحجارة " ،
الصوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل
حجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتيهم مع الصباح المبكر في يده البندقية ،
يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التي جرت في غيابه من محاجر
الحكومة . لم يشتك للمركز مرة واحدة بل يمكن أن يصل إلى غرضه

يضرب رجلاً برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات
وهذا الجبل عن ذى قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هي من جانبهم
مشوبة باحترام لا يمنحونه الا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم
صلابة .. وقال شعلان :

« ما حبش لما تسهم .. قلت كام مرة قول اللي في فكرك
ولا تحبش .

« أخبي على إيه ؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما عدش يفلح ،
رح يتعبك في الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف ح يعلم
الحجارة إيه من اللي اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستعجلنى ، وتو ما لقتته ...
تركه زميله وقام .. الحديث لم يعجبه .

...

تحيات نرجس على التهرب من جاسر ، فهي تخشى
افتضاحها في البلد ، وخسرانها أقوى سائر لها : زوجاً غافلاً . على أن
يوم السوق ثغرة في تحصنها لا تستطيع سدها . فمغامرات كل
تاجرة تنتهى حتماً إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها ، فتؤديها بلا
تفكير كأكلها وشربها .

في منفلوط ، سوقاً بعد سوق لاحتقها جاسر وهو هائج مغيط .
فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد في حين
أنها مبلولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، في فورته الفجائية .

وجد من هذه المرأة وعوده قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيه إلا مع الآخر ، وأصبح كالحاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن في ضرعها ولا تدرب به إلا لحالب معين .

وجدها أمام بائع يعصر على صدره يدها ليلبسها « خواثش » زجاجية ضخمة مبرقشة ، فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن ، فلم تمنع . — « إذا كان نفسك في حاجة قوليلي .. ربنا محزن على دله قتي ، وأشيتي معدن .

— يا جاسر سيبي في حالي ما تخربش على ..
— انت الي ما تخربيش على .. أنحرتها أنا الي ح ! أضيع عمري عليك .. شوفي .. لو تكوني إنت مين ، ومها عملت ، أنا مش ح أسيلك . فهمتي ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهي بعد تفریطها الأول بين أن تدوم أو تقاوم نخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجرى باسمها في أنحاء البلد . كل خوفها أن تشهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة في زوجها . فاهتمامها بإسماعيل يحى منذ أن ضاعت منه الإجارة (١) ، وأصبح أجرياً بالطورية ، (٢) يقضي أكثر الأيام حاطلاً ، لا شغل له سوى النوم فوق الفرن . يوم وراه يوم وهو في خمول لا يسأل إلا عن أكله . لا ينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . وموافق .. مادامت من وراه سعيها ستنتفي عليه .

(١) سلة في استنجدار أرضي كان يزورها .

(٢) اسم الناس في الصعيد .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح أصعباً بشير لا درعاً
يسر ، ولكنه - على الأقل - ينفع الآن حجة تهرب بها .
- « أنت عارف إسماعيل بارك في البيت .

- إسماعيل مين ذا اللى مالى عينك ؟ قولى إننى اللى مش عاوزة «
هل تقطع الخيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلا أن
تطوح بجاسر :

- « أهو شغلك شغله فيه » .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب ،
كانت قلقة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب
شديد لم تعهده من قبل ، وبدأت خطواتها تسرع على غفلة منها .
فليفر الإثنين معاً .. وماذا يهمها .. لفت رأسها فجأة روح
من عدم المبالاة و « ضرب الدنيا طبنجاة » ، هى امرأة تتاجر بعرضها
وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البعراوية غير سهلة .. وليس كل تفكيرها سليماً ..
فى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تنح لها الظروف
أن تتعرف مداها .. وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا
بها تكرر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .
- « إذا كان كده .. أحسن تعزل من المنامة اللى حلاتنا ..
شوفلك حنة غيرها .

وتلاقي النظران ثم ولت مسرعة

وسار جاسر بتمهل في خطواته . كان غير واثق من فهمه ، فإذا به له
اللمحة السريعة تبدد شكوكه .. وجعلته يدرك ، لا الذي تقصد
ترجس بابتعاده عن جبرتها ، بل أنارت له طريقاً واضحاً يسهل عليه
بعد ذلك الوصول لنهايته .. القروية هي المدبرة ، وخريج السجون تبع !
وكان في حاجة إلى التفكير في هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة
يعرفها في نقطة المومسات .. وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح في
الجو رائحة تخمر شديد من بوظة (١) مجاورة ، وتصل إليه نغبات رقص
على مزمار وطبلة ، وأمامه عدة نسوة يفترشن الأرض تحت ظل
شجرة على حافة الجسر . .

ولكن جاسر ليس هناك .. ترك إسماعيل وأخذ يفكر في ترجس
عندما يحولها لن تجد فيه زوجاً « نعمة » كإسماعيل . في أول
لياليه سيسويها بضرب موجع ، لنفهم أنه من عينة أخرى لا تحتل
اللعب على الدقون .. سيحبسها في الدار ويقفل عليها بالفتاح ..
وشدت يده بغضب على جوزة التماك .. وتكررت نفخاته ،
يجابها الماء بكركرته ، وغاب في تفكير .. على يديه دم رجل ،
ولكنه لم يقتله إلا في لحظة غضب دون أن يعي لنفسه . أما الآن ،
بعد خمس عشرة سنة في السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة
ويستهوئ فريسته إليها .. ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض

(١) مكان شرب البوظة ، وهي عجين مالح مسكر .

نفسه عليه . قصة يذكرها الآن لأحد زملائه في طرة .. قتل له ابن في ريعان شبابه في جمعة طلبه للجهادية ، ولم يكن لغريمه ذكر يثار منه سوى صبي يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه ، فرمى بالرصاص .

هذا هو الصبر .

.....

وأثبت الأيام أن عبد المسيح على حق . فالحيوية التي استيقظت في جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجار ، ينكئ على عمل واحد من الفجر إلى الغيب . وعلى مهل بدأ يقلل من عمله ، ويتدخل أكثر فأكثر في إدارة المحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبي يعاكسهم في الشحن . ولسابقة خبرته في المحجر ، وفي طرة ، لم تخب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمون رأيه وينصتون لرأيه .

وأعجز شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جم المشاغل ، كثير التغيب عن المحجر ، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتاً يضيع في سياسة منازعات عديدة عقدتها لا تحل إلا إذا جاء ورأى وحكم . وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح ريساً للمحجر نمرة ٦ .

في ليلة جلس جاسر في دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ويضاحك الجلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاي .. ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

— « يا ولاد باركولى .. الهاردة قرىة الفاتحة فى الجبل مع
حسين رمضان يجوزنى بنته ، حكاية زى الحدوته .. أعمل ليه ؟ عاوز
أجوز من يوم ما رجعت . رزقى دلوقتى متسع والحمد لله .. ومن يوم
ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبلى البلد ، وأنا مش متهنى
ع اللقمة ، عاوز لى مرة نخدمنى .. »

ولما ترك القهوة دار حديث الموجددين عنه .. كيف صار الآن
فى نعمة بيعثر لقوده ، ويشترى قدر عزى البلح ، ويجهز عليه فى
يومين . . .

— « والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية
ح يسف التراب ، وأولى نقرش من قريه .. »

— عشان تصرفه البحر اوية على كحلها ؟

— إزاي ؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغله هناك ...

— حقيقى .. امبارح شايفهم الاتنين معدين سوا ..

— إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ما عدى
يفلح . . .

— صحيح . . . هو يعرف ليه فى شغل الحجر . . . »

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه انه
لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حافة الماء للمركب . بين
لأثنين خطوات ، سيكون معه يساعده ، ثلاثة قروش يوميه ..

ولإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح خائب ، لا تربطه بالأرض
ما يربط باقي الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى
الجبل مرعاً وراءه تحريض نرجس . .

— « ليه ما تروحش . . انت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار لإسماعيل إلى الموردة ونزل في المعديّة كسير القلب ، أمامه
على الضفة الأخرى بحجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه
ولكن بعض الأصوات يقدفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه ..
كلها وقع الحديد على الحجر .. ولم تتوسط المعديّة النيل حتى استعاذ
المراكبي من الريح . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين
سيسوقهم سوء الحظ للمرور في هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبي واحد يحب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا
دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ، وهم إلى قلوعه يربطها . .
فلذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة
و « يربش » بعينه في نور النهار ، إن كان شيخاً . . لا مأمّن لأبو
فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها بالمرصاد كالشيطان
ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للماء . . بعضهم يعلل السبب
بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد في دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعها
بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن في أبو فودة شيئاً مرصوداً
من القدم يدفع بالمراكب لحثها ، لاشأن للهواء أو الريح . فكّم من
مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس في الجو نسمة ، فإذا جاءت .

تحتة انتفخ القلع وترنح المركب من ضربة خفية ، وانقلب ظهورها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتملأ قلبه سخطاً ، وحمل هم المعدية تنتظره كل يوم صباحاً ومساءً . ثم تجاوزت المعدية وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلو رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء في بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التي وصلته وهو على الشاطئ . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالحبال . في يدهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحي ، بعضهم يغنى وهو يدق ، وبعضهم منهمك في عمله ، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هي أول مرة يعدى فيها . كان يظن طول عمره أن الجبل بعيد عن الماء بمسافة ، ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لطماً . بعض الأحجار المتناثرة غرق في الماء لنصفها كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر قد يبدو كأن النيل راعع أمام أبو فودة يغسل له قلعيه ولكن دمة التيار يضرب الحجر ، عداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طينة شواطئ الوادي . . عناصر من الطبيعة متكافئة ، ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبينت حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين ويعلو هامة الثاني بيده من الحديد والنار ما فت

في دروع الجبل . . يقطع من لحمه كل يوم ولا تمتلئ عينه حتى
أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على
الجنبين ، بينها بطن مهضومة .

وفجأة دوى في الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة (١) . . .

تناثر ثشة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة وجرى
إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لحيب من نار
وسط دخان أسود ، يعقبه سحب أبيض . . وفي اللحظة عينها ملاً
أذنية دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفقت أكوام الحجر كالطرر ،
تتلحرج . . تتلحرج . . الكبير منها يصل إلى الماء . والصغير قد يقف في
منتصف الطريق .

والفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير
استقر على بعد من الموردة :

— « ودا ح تشيلوه إزاي

فأجابه العامل وهو يضحك .

— « ما تخافش . . دا ح نكسره باللغم كام حته .

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ،
كلهم قساة لا شهوة لهم في التحلث وقت الشغل ، وأغرب شيء فيهم
أنهم من سحنة واحدة لا يفارقها العثير (٢) . . أيديهم غليظة ،

(١) كلمة تحذير معرفة عن الكلمة الإيطالية الفريجي بمعنى احرس وكانت

شائعة على السبلة اليهودية في الاسكندرانية بنفس المعنى .

(٢) القوام .

ظهورهم محنية، هل تفرعوا جميعاً من أصل واحد؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً؟

واستمر إسماعيل في نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال. واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى، وأصبح يفهم الألفاظ التي يتباد لها زملاؤه، ولكنه ظل رغم هذا في مرتبة الصبيان أجراً، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن.

في فترة من فترات مسخه، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلاً وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو أريح.. وأخذته إلى سفح الجبل وأراه علامة.. هنا يراد فتح ثقب للغم جديد.. ما عليه إلا أن يكون معه الملق - عود غليظ من الحديد رأسه مدببة، والمعلقة صيخ طويل في نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب - ويلقى في الحجر إلى أن يستحدث به ثقباً مستقيماً طوله نصف متر تقريباً.. ليس يطلب منه شيء أكثر من هذا.. وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه وإطلاق النار فيه.

لم يفلح إسماعيل في أول الأمر في إحداث الثقب. وحدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره، ولكنه - بعد أيام - سار في عمله وأخذ يمر على الأمكنة التي يجد فيها العلامة ويشغل.. هو إلى اليوم يعمل واقفاً على رجله.. بعد أيام وجد نفسه مضطراً لفتح ثقب في علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه. وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم في حبال تتدلى من صخور بارزة في أعلى الجبل..

ليهيطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها. عن يسار الحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدي إلى رأس الجبل. . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدل الحجار الجبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً في وسطه بالجبل ويظل حر اليدين .

وتعلق إسماعيل بالجبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والنيل .

في النهار أبو فودة حركة وفرقة ودوى ، وفي الليل سكون وهواء يصفر . . في ليلة مظلمة في أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً في قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر . يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه — دائماً رجلاه — عاجزان وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وآخر بيده ، ويقف ينصت . في لحظة خيل إليه أن الظلان حوله تتحرك إذا ضربها الهواء ... وتمالك نفسه ، يسير مخني الظهر تنفسه مسموع . لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر في الحمى التي تملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف ، ، ،

ووقف جاسر عند صخرة نائمة حولها جبل معقود ، ذيله الطويل يتدل إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الجبل إلى أن جاءت أمامه . وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون في الحبال وطرق عقدها . . وكان جاسر أيام شبابه — أمهر العمال في اصطناع العقد ، له عقدة يحدثها بين — حبلين في غمضة ، ومع ذلك يكتفى أن يقع على طرفها ضغط يسير حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد . . ليس هذا كل ما يعرفه . . بل كان ماهراً أيضاً في اصطناع عقدة تظهر ملتوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجذب طرف الحبل على مهل ، فإذا بهاتفك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس يدين مرتعشتين يعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل ستستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التي لا تلبث إذا سقط عليها الجسم تلقفته بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان في مؤخرة مركب كبيرة عملة قللا وبلايص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت في الموردة ، وكان أهلها في نوم عميق . .

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشه مكتومة . . الكلاب تعوى حوله ، وللديكه آذان كله نداء وتنبيه .

في الصباح ، بعد مياعده ، خرج من منزله لافاً رأسه ومعظم وجهه في لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله — وهو في خطو

المشلول — إنه مريض . بين جنبيه هوة إذا أطلت عليها نفسه لم تر إلا خوفاً ورعباً يحدقان فيها هو مريض ضعيف ولكنه قبل كل شيء يريد من ربطة اللامسة أن يمتقن وجهه ويستر اصفراره واستقل المعدة معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلاً ذاهلاً عما حوله المناظر التي تبصرها عياه تقع على مخ صدى ، فلا يفهم منها شيئاً ..

وبدا أبو فودة يتضح . كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصلح به الحجر ولكنه الآن أنخرس واجم .. وزاد من تساؤل ركاب المعدة أنهم رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجرى من أعلى الجبل لأسفله . بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعاً إذا أرادوا لسماع صوتهم لبعيد ، في صرخة طويلة موجة تنتهي بعويل .

وقفز الجمع فاندس بينهم جاسر .. تلقفهم العمال بالخير .. إسماعيل جاء كمعادته ، وطلع للجبل وهبط على الجبل ليبدأ عمله ، وفجأة — وبدون سبب واضح — رأوه يهوى .. صرخ مرة واحدة ثم لم ينطق ... رقراق من الدم يسيل من طرف الفم على خده عين مسودة ، حاجبها مجروح ، وعين كبيرة جاحظة . . مر الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد الموت . . فهو فيها أسير مقيم .. وارتدى جاسر على البلثة يحضنها ويبكى .

— « آه . . آه يا ابن خالي » .

ونقلت البلثة — في المعدة ! — إلى بنى شقير ، يألف النيل منذ الفراعنة ترجع الميت من أولاده على ظهره .. في الغرب المنازل ، وفي الشرق القبور . . ونزهته الوداع !

فوصل إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل ، فأسرع إلى محل
الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجوداً فأخذه بين يديه يقلب فيه ..
يستمع للحديث حجار واقف وراءه .

— « هو لازم ما عرفش يعقل الحبل كويس .. صايبهاش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف .. لم يلتفت للحجارة .. وكأنه يهمس
لنفسه لا يسمعه قوله :

— « له رب .. » .

ومرت أيام طويلة .. ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من
حسين رمضان أن يحله من « فائحة » ابنته ، لأنه لا يجد مفرأ من أن
يتزوج من أرملة ابن خاله .. المصيبة مصيبتها .. هي بحراوية ..
فارقت بلدها وأهلها .. وليس لها عائل في بني شقير .

وضمهما منزل واحد .. في لذة يعرفها أكثر الناس
هي عندهم شيء يأتي ويذهب ، وهي في نرجس وجاسر عنصر مقيم ..
وارتوى جسمه على الغذاء الحديد .. في أول الأمر أصابه ضعف
شديد ، ثم انقلب إلى سمنه ، انحفت معها عظمتا خده ، وانتفخ شلغاه
وظهر له كرش كبير .. وزاد إقباله على عرق البلح ، وكثر في
الحبل حديثه ، وبدأ العمال يتدمرون من محاولته ، في غير مناسبة ،
لأن يتدخل في مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

. مر عليه شعلان ذات يوم وهو في الحجر ، وتعمد أمام العمال جميعا أن يؤنبه على بعض إهماله . . وهدده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة المساء على حجر ضخم في وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه في الثقب . . ثم ضحك :

— « يعني عم شعلان فاكر رزقي في إيدته ؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نمرة ؟ أهما عاوزيني هناك . . »

وامتلاأ الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالقتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البارود ، وركزه في الثقب وسط كوم البارود ، وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

— « انت ياواد ياغلوان — دقيت الحجر ده كويس ؟ أوع يكون فيه حصوه ؟ » .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف : —

— « يبقى يشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يعيش إزاي ؟ »
ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيراً من الحديد وبدأ يكبس التراب بهلوء وبطاء . . ثم تركه وعاد للحديث من جديد . .

— « أنا ح أنخاف من إيه ؟ مش عارف ان نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

— « أوعوا بقا . . وردة . . وردة . . وردة ياواد يا محمود ، وردة يا حسين ، سيب الشغل دلوقتى يا عوض » . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . ومال بوجهه على الفتيلة . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الحديد . . لم يسر اللهب بها . . لا يزال عود الكبريت مشتعل فى يده . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كز عجرة الوحش تراباً ولهباً وذنخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق . . اختفى وجهه لحظة وسط اللحم . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملقى على الأرض . .

تجمع العمال عليه . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم حامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس وفقد روحه . . أو فقد شعره وجلده ، وسكن البارود غير المحترق فى وجهه فى علامات أشبه بالجلدى . . وكم عاجل تفحم أنفه . . ولكن جاسر فقد عينيه . .

يعيش جاسر من إحسان الناس . . غير أنه لا يستطيع الاعتماد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المعديّة . .

إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده في الهواء يريد أن
يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقط طول النهار
تحت سفح الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود . . لا يزال لسانه
« زفرا » ، بل ربما زادت شتائم ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو »
تعطى إليه ، لا يحمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم في
عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل
بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبهق حواجبه من جلد
وجروح ، عيناه كعيني البوم إذا أغمضهما . .

ووجد جاسر في العصا ما يتوكأ عليه ويساعده في خطوه . .
من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبوءة عجيبة
بعماه ؟ مشيته هي هي لم تتغير . . ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه
دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . من
أين له أن يعلم أن هذه المشية « دمغة » لا تزول أرث سجن طويل
عاش فيه جاسر تربط رجله الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة . .
خمس عشرة سنة تندفأ من حرارته . . هي عرق في جسمه . . يكاد
يجرى فيها دمه X

X نشرت أبو عودة في جريدة السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٢٠٢٧

١٤ ، ١٥ ، ملحق العدد ٣٠٥٧ ، ١١/٢/١٩٣٣ ص ٢٦ ، ٢٧

حياة لص

عندما انتظم حسنين ابراهيم في سلك الحفراء بالقاهرة كان فخر الطابور بقامته المرتفعة وصدره العريض وذراعيه القويتين وجبهته وهي ملساء تلمع حياة وشباباً . وامتاز فوق ذلك بجرأته التي اكتسبها من قضاء ليلاته منفرداً وسط الحقول لحراستها . وحبيه إلى رفقاته أنه ذو حديث حلو يدل على معلومات واسعة وذكاء طبيعي صقلته المدينة وأبرزته .

وازدادت قيمته لديهم وكثر إعجابهم به عندما أذاع بينهم أحد أصدقائه قصة حدثت بها حسنين في نشوة من نشوات الدهكري التي تدفع صاحبها إلى البوح بعاطفته فتغلبه وتغلب فيه حب العكس

والانفراد . فعلموا أنه قروى نشأ بالريف وترى وسط حقوله ولولا
القدر لكان يرتدى اليوم بدل معطفه الخشن الأصفر جلباب الفلاح
الأزرق الملطخ الحائل اللون . ولكن يقضى طول يومه محنى الظهر
فوق فأسه بدل أن يظل الآن منتصب القامة معتمداً على نبوته الطويل .
فأى شئ غير القدر هو الذى يرمى بالمرأة فى طريق الرجل فتخرجه
من حياة إلى حياة أو يجعل منه شخصاً غير ما كان ! قصته إذن قصة امرأة
كانت مشهورة فى القرية بميلها إلى الرجال وقلة تورعها فى التحدث إليهم
ومقابلتهم وما لبثت أن انتقلت إلى البندر تحت ضغط الوسط الذى تعيش
فيه لترتق هناك من عرضها ... وهى نهاية محتومة لكل فتاة تسهين
بشرها فى الريف ، وإن هربت منها فإلى موت أكيد ؟

فهجرت القرية ورحلت إليها ، ثم ما لبثت أن جرت إلى العاصمة
فهوى معها حيث استمر عاطلاً زمناً غير قصير تلوق فيه فقر
المدينة على خلاف ما كان يعهده من فقر الريف . ففلاحو القرية فقراء
ولكن لا يمتاز بعضهم عن بعض . يسرون جميعاً من حقلمهم إلى
دارهم كئيباً جنب كتف ، ولكنه فى المدينة فقير وسط أغنياء .
يقطع المسافات الطويلة سعياً على قدميه ليصل إلى أحقر سقف يظلل
إنساناً تحت سماء المدينة !

وظلت علاقته بالفتاة متصلة إلى أن أصابها شئ من القصور .
ولو أن هذه الظروف أحاطت بغيره لا لتمس النجاة فى الرجوع
إلى قرية ولكنه آثر البقاء فى المدينة إشفاقاً من نخجل يزعم أنه يشعر به

إذا وجد نفسه مرة أخرى بين أهالي قريته وهم لا يعرفونه إلا بشهرته
في متابعة فتاة من بلد إلى بلد . وهذا علم متحل إذ لا شك في
أن السبب الحقيقي هو أنه سقط تحت تأثير المدينة . وقد استهوته
بأنوارها ورفاهيتها . ومن لا يلتمس له العلم . وقد انتقل
من أبسط وسط وأنحسنة إلى مدينة يعتبر مجرد الوجود بها والسير في
طرقاتها لذة وتنعماً . والمدينة للقروي كأنه لشارب تسحره وتأمره
فينقلب عبداً ذليلاً لها ويضع تحت قدميها حياته الوديعه المائدة ليستبدل
بها حياة محمومة مضطربة ولكن تتابها بين حين وآخر نوبات سرور
ولذلك قنع حسنين إبراهيم أن يكون خفياً يتناول أول كل شهر
اثنين من الخنفيات لا تقيم له أوداً ولا نجيء بكفاف زوج وطفلين
(وأى عجب في أن يعشق حسنين إبراهيم امرأة وهو مترح من
أخرى .. أليست زوجته نوعاً من المتاع لا قيمة له ولا تدخل في
حسابه ؟)

وكان من تأثير هذه الفشة أن أقر له زملاؤه بنوع من البطولة التي
وإن كانوا ينكرونها جهاراً فهم يعجبون بها سراً ، ويتمنى أحدهم لو
وقع له في حياته ما وقع للبطل . ومن هنا كان أكثرهم يستشيريه في
أمره ويتصيح برأيه .

مرت عليه شهور إلى أن كان دركه في شارع تجاري كبير .
ولكنه شارع وطني لا يلبث مؤذن العشاء أن يدعو الناس إلى الصلاة
حتى يهرع أصحاب المحال التي به إلى تلبية ندائه ، فيخلقون أبوابها ،

فإذا قضاوا الصلاة أتجهوا إلى منازلهم القريبة وكل منهم يحمل شيئاً من مأكّل وفاكهة .

فإذا تقدم الليل أصبح الشارع مظلماً صامتاً لا حركة فيه . ترتعش في أرجائه أضواء المصابيح إذا ضربها الهواء فترقص معها على الجدران أشباح سوداء غريبة .

في وسط هذه الوحدة الموحشة قضى حسنين إبراهيم أياماً طويلة لا يشغله عمل واحد يستطيع أن يمحصر فيه تفكيره لينجو بنفسه من قبضة ملل يطحنه بقرنيه فيبعث إليه التأفف والسأم في عمله وحياته .

وكان الشارع لديه في أول الأمر شيئاً جديداً له بهجة كل جديد ولذته فشغل حسنين نفسه بدراسة الشارع دراسة دقيقة حتى ألفه وحفظه كما يحفظ المرتل أنشودة يتلوها عن ظهر قلب ولكن الاعتياد والتكرار أفقدها كل لذة وسلباه اهتمامه فأصبحت حياته بالشارع عملاً يؤديه رغماً عنه وهو غائب الذهن غير مبالي أو مهتم به . ثم انتهى به السأم إلى أن اختار حجراً بالطريق يجلس عليه معظم الميل يسلي نفسه بتنظيف غطاء رأسه بكم معطفه ويقتل شاربته يميناً ويساراً ...

فكم من مرة قطع فيها الشارع سيراً وذهاباً وإياباً فاحصاً بنظره الأرض ، محدقاً في أبواب المنازل مختبراً لأقفال المحال (حتى يطمئن على دركه) منصتاً للأصوات الهاتفة التي تخرج إليه من المنازل . ولقد كان يحدث أنه كان يقف أثناء سيره أو يسعى من أول الشارع إلى منزل ينصت بانتباه إلى ما يصدر عنه من أصوات ...

وبذلك أصبحت حياته جزءاً من حياة الشارع ، يعلم كم حفرة
تفسد استواء الطريق ، وموضع كل منها . اعتاد حسنين إبراهيم
أن ينتظر بشغف كل ليلة رجلاً يرجع إلى داره متأخراً ويجلس بجانب
النافذة والغرفة مظلمة يدخن لفافة التبغ وهو يحلق في السماء
فكانه بينه وبين هذا الرجل ميعاد في كل ليلة ...

وإذا وقف بأول الطريق علم وهو بمكانه أى المنازل ينبعث منها
صوت بكاء طفل صغير يصحبه صوت امرأة تغنى له وهي تضرب ظهره
ضربات تترن مع نغمتها وتسبح بجلاء من الشارع . وأصبح لا يهتم
عندما يسمع بعد منتصف كل ليلة صوت رجل مريض يتأوه ويتوجع
ولا لأصوات المشادة والعراك بين رجل وامرأة في منزل آخر .

وكم من مرة أبصت لطالب يستذكر دروسه في أول الليل
بصوت مرتفع حتى يأوى إلى فراشه بل أصبح ينظم أوقاته ويعلم بمحور
الزمن بمميزات أوجدها لنفسه ، فعلامته على أن منتصف الليل
قد مضى فتى قصير القامة يقبل إلى داره في خطوات بطيئة ، واضعاً
يديه في جيبي بنطلونه وحاملاً في تجويف ذراعه الأيسر رزمة ضخمة
من البخرائد يسير ولفافته في طرف فمه ، وطربوشه منحدر
فوق جبهته ، وعيناه باحثتان عن شيء ضائع منه في الأرض
ويبدله على اقتراب الفجر صوت جرس المنبه يلقى من أحد المنازل
فيستيقظ على صوته المزعج رجل يلبس قبّابه ثم يحول به في أنحاء

منزله ثم يتلوه في تلاوة القرآن . وقلها كانت هذه المميزات والعلامات
تخطىء معه .

. . .

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة التي يقر فيها الناس في بيوتهم
يتدفأون كان حسين ابراهيم كعادته بالشارع ، هو وحده الذي
لامأوى له من الأمطار الهاطلة والرياح الهوجاء ! وكان من عادته
أن يتخذ من بروز بعض المنازل في الطريق سترأ له من رذاذ المطر .

في هذه الليلة وبعد انتصاف الليل بكثير لمح حسين ابراهيم شخصاً يأتي
من بعد تطوف برأسه هالة بيضاء يسير عني الرأس والظهر وكأنه
جسد بلا ذراعين في مشية كشية الرجل فقد شيئاً يبحث عنه باهتمام
في الأرض دون أن يقف في سيره ، وكان هذا الشخص الغريب
يسير بجانب الجدار ويتسكع قليلاً بجانب أبواب المحال ، بل إنه وقف
مرة أمام أحد الأبواب وأطال ، وعندما اقترب من حسين ابراهيم
ورآه نشط في مشيته ، واستطاع حسين أن يراه ويتبينه فإذا الهالة
البيضاء (كوفية) بلفها الرجل حول رأسه ويغطي بها أذنيه وإذا
هو قد لف ذراعيه واضمأ كفيه تحت ابطيه وانكششت رقبته فالت
رأسه إلى صدره من تأثير البرد وطلباً للدفء الذي لا يجلبه إليه ما يلبسه
من لباس رقيق : ولما حاذى الخفير الضت إليه وبصوت أجش كان
صاحبه لم يتكلم منذ مدة قال (سلام عليكم) ثم أرغم نفسه على
كحة ليسلك بها زوره ، فأجابه حسين بشيء من الريبة (سلام) على .

خلاف عاداته إذا رد التحية فإنه يقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)
ثم تبعه بنظره متمهلاً حتى غاب الشخص عن نظره .

والواقع أن حسين إبراهيم عندما طالت مدته بالشارع اعتاد
أن يتفحص كل شخص جديد يمر أمامه ليجد لنفسه مجالاً جديداً
تستريح عيناه بالنظر إليه وينشط فكره ويستفيق من رقاده وسأله .
اعتاد حسين إبراهيم أن يقصد إلى قهوة (حسن علي) عصر كل يوم ليتناول
(فنجال قهوة) أو (كوبه شاي) وفي اليوم التالي اتخذ مكانه المعتاد
فلذا بجانبه شاب يلف رأسه بكوفية ... هو بعينه الذي لم يتنازل
حسين بالأمس أن يرد له التحية بمثلاً ولا يزيد . ودار الحديث بينهما .
وشرب حسين إبراهيم الشاي (وجوزة تمباك حمى) على حسابه فربطها
صداقة سريعة كالتى تنشأ عادة بين الجلاس في الحانات والمنتديات .
وكان الشاب حلو النكتة يحادثه عن النساء وعشيقاته وغزواته المتكررة
في المنازل فاعتقد حسين أنه (جدع) من فتية الحى الذين لا يهمهم
شئ ولا يقف في سبيل تنفيذ رغباتهم مانع من الموانع .

وتكررت مقابلتها كل ليلة . فتعرف حسين بجميع أصدقاء (عبده)
وشهرته (حماية) وهو لقب يتخذة لنفسه دلالة على أنه لا يخضع
لحكم البوليس المصرى استهزاء به . وتطرفت الصداقة إلى درجة أن
حسين كان يصحب عبده في زيارته لأصدقائه في منازلهم ويجهد
ألا تفوته فرصة يجتمع فيها به .

وعندما دخل حسين منزل (عبده) لأول مرة ذهل كثيراً لأنه
رآه على تفاهة أثنائه ، مزوداً بأصناف كثيرة من البضائع ، ورأى

في غرفة (أثواب البقعة) - و (مقاطع الشاش) ومقاطف البن
وكيات كبيرة من السكر والصابون وأقراص الحبة الرومي والفلمنك
وعلب الحلوى والشكلاتة ، وعدداً وفيراً من الساعات وصفائح
الزيت الصغيرة ، ثم لاحظ أن كل واحد من أصدقاء عبده يخرج
من الزيارة حاملاً صنفاً واحداً من هذه البضائع المكسرة لا يتعداه
مهما تكررت زيارته فأم أحمد الدلالة تأخذ معها القماش وأبو النجاة البقال
بجبة السيدة سكيئة يأخذ أصناف البقالة . أما الساعات فيأخذها شاب
من الدين يبيعون (إنشا للجوابات . فوازير . حكايات . أغاني
وروايات) يسافر بها إلا بلاد الريف في أيام المواسم والمولد .

أخذت هذه المناظر والتجارب تمر أمام عينيه ولكن حسنين كان
صامتا لا يرضى أن يصرح لنفسه باعتقاده في مهنة هذا الصديق الحديد
بل استمر صامتا متردداً . وحجته أنه لا يعنيه من هذا الأمر شيء .
ولأنه على (بر خليص) إذ مادام أنه بعيد عن الشبهة . فلا يهمه إذا
كان (عبده) لصاً أم لا . ولذلك لم ينكص عن محادثة (عبده) في
أصناف القطع الحديدية اللازمة لفتح الأبواب (إذ رآه يملك عدداً
وفيراً منها) فأراه عبده الأصناف المختلفة ودله على أسماؤها وكيفية
استعمالها وأخيراً أخبره عن الأشخاص الذين يبيعون له هذه الأشياء
كان حسنين يصغي إلى هذه التفاصيل بشغف وشوق وتنطبع ذكرى
الأحاديث في ذهنه بقوة وتأثير .

وأخيراً لم يفته أن يلاحظ أن (عبده) ينحني في ناحية من الغرفة

صندوقاً صغيراً به { تذاكر صفراء } يستهلكها بسرعة ولاحظ أيضاً
أن أصناف البضائع تقل فتكثر التذاكر .

فإذا نقل الكوكابين إمتلاء المتزل مرة أخرى بالبضائع
النتيجة الطبيعية لمسلكه هذا أنه لم يدهش عندما سأله (عبده)
ذات مساء (هل تحضر معنا هذه الليلة ؟) ولم يكن هذا السؤال يخطر
على باله فصمت ثم (قال : لما نشوف) فتواعدا بالقهوة .
لم يدر نزاع كبير في نفس حسين ابراهيم وكانت حجته كمحججه
السابقة أنه مادام سيذهب متفرجاً فلا خوف عليه .

فيذهب وهو في ملابسه العادية وكانت مأموريته
أن يقف بأول الطريق حتى ينتهي عبده ورفيق له من كسر باب محل
وسرقة ما به . وتم ذلك بكل سهولة ولأجل أن يكافئ (عبده)
الخفير على خدمته أعطاه قرص جبن فقبله (مادام أنه لم يسرقه هو
شخصياً) ثم كلفه أن يحمل الباقي من السكر والصابون إلى أبي النجا .
وفي طريقه إلى أبي النجا انتهى به منطق كان يتعب رأسه قليلا
إلى أن يعرج على منزله ، فيملأ خزانته من السكر والصابون ويذهب
بالباقى إلى أبي النجا وهو يقول سرّاً (ابن الكلب ! هو دافع فيه
فلوس . مادام حاجة بلاش !) .

حدث بعد ذلك أن انتقل حسين ابراهيم إلى درك آخر تبع
قسم يبعد عن قسمه الأول . ولا بد لنا أن نقول هنا أنه أكثر أخيراً
من زيارته إلى عشيقته . وأطال في سهره وأسرف في شرب المسكر

حتى ركبته دين قليل دفعه كثيرا إلى التفكير . ولكن انتهى به الأمر إلى أن تقدم لرئيسه متارضا يطلب أجازة يوم فيسمح له بها . وعندما أقبل منتصف الليل سار حسين إبراهيم متسللا حذراً إلى أن وصل إلى شارع القديم الذي قضى فيه أياماً طويلة فعرفه حق المعرفة وحفظه عن ظهر قلب ، فعلم أقوى أفعاله وأضعفها ، وأوقات غفلة سكانه ويقظتهم . فخرج في حارة صغيرة ليس بها إلا مخزن واحد يعلم عن صاحبه حداثة عهده بالتجارة . وأخرج من جيبه طفاشة من الحديد (ولو بحثت عن الوقت الذي اشترى فيه الطفاشة علمت أنه اشتراها منذ أن ابتداء يعاود علاقته مع عشيقته) وبحركة بسيطة فتح باب المخزن .

وسار إلى منزله وجيبه مبلل بالعرق . وعندما أتى الصباح استطاع أن يقبض ثمن ما سرق من أم أحمد وأبي النجا ، وإن غبن في السعر لحداثة عهده وخوفه في أول الأمر ولأنه لم يصبح بعد (قديم في الكار) وحدث بعد ذلك أنه كلما كان حسين إبراهيم في أجازة وقعت سرقة من سلسلة سرقات متشابهة متتالية في هذا الشارع المطمئن الهادئ ومنذ ذلك الحين انقطع حسين إبراهيم إذا كان في (دركه) عن تنظيف غطاء رأسه وقتل شاريه .

فتوة ديجتري

هى غير خاصة ببلد دون بلد ، هى — إن شئت — (ماركة)
لقهاو عديدة منتشرة بريف مصر شمالها وجنوبها . فى كل بلد صغير
أو قرية كبيرة . إذ كلها تتشابه فى أن الذى يديرها رجل هو فى
بلد — ديمترى وفى أخرى — محالى — ولا يخرج اسمه عن أن يكون
واحدا من هذه الأسماء — وما يشبهها من تودرى ونخريستو أو ينى
ونخرالمبو ..

هى قهاو تحتل مكانها فى هلوء وسلم وتستمر فى نمائها من محافظة
على التقاليد التى أوجدتها منذ نشأتها الأولى . معتمدة على وسط واحد
لاتحيد عنه حتى تصبح مع الزمن خصيصة من خصائص هذا الوسط

وظاهرة كبيرة الأثر في حياة الشعب المختلفة النواحي قد تعادل أهميتها
أى ظاهرة أخرى .

وكذلك تجد كلمتا (قهوة ديمتري) مجالا في حديث الناس
وحياتهم كما تلقاه ألفاظه قصيرة تؤدي معاني جملة كالنقطة والمركز
وال محطة وعند العمدة وأخيراً الكفر (١)

وفي كل بلد تمتاز (قهوة ديمتري) عن بقية القهاوى بنظافة
مقاعدھا ومناضلھا ، وبهلوء جوھا وخلوھ من الضجيج وألفاظ السباب
والمضاربات والمعارك . ويتكبرھا عن تقديم (الجوزة) البلدية إلى
زبائنها مستعيضة عنها (بالشيشة) التي يعتبرھا الرأي العام أرقى من
(الجوزة) تحت تأثير اندفاع الجمهور في الزمن الماضي في التشبه
بعادات حكام الأتراك ، ومنها تلخين (الشبق) . فلم يستمر على
استخدام (الجوزة) وهي مصرية صميمية - سوى الطبقة الدنيا ..
ولعل السبب في نجاح قهوة ديمتري هي أن الذي يديرھا رجل
يوناني (ولكنه موصوف بالرومي لدى أهالي البلد) محقيراً لجنسية هذا
المهاجر الغريب (.

تجری في دمه مهنة إدارة القهاوى بالوراثة من أب عن جد ،
والا فلماذا لا يستطيع محمود أو علي أو حسن جيرانه الوطنيون تقليده .
فھا هم يرونه قد حجز المكان الذي يعد فيه طلبات الجلّاس بستان خشبي
رفيق بينا هم لا يزالون معتمدين على استعمال (الغلاية) ، ذلك

(١) لفظ يطلق في الريف على مكان البغاء الرسمي .

البناء الحجري الذي يضمونه في ركن من أركان القهوة دون ستر
والذي يعلو فوقه (البكرج) الأصفر الكبير المعد لغلي الماء
للقهوة والشاي والزنجبيل فيرى الخالس إليه الماء القلري يجاور البكارج
ويرى (المعلم) يغسل فنجاله في ماء أسود عكر ثم يمسح يديه في
في جلبابه القدر ، . ثم يسمع الخادم يتنادى بطلبات الزبائن في لهجة
منكرة وألفاظ عامية مبتذلة من (واحد أزوزه . واحد جتربيل
واحد تمباك حمى .)

ثم يزي زبوناً بجانبه لم يفلح في (شد الحوزة) فينادى الخادم
فيتنفس فيها شهيقاً قوياً وينتهي من مأموريته بالبصق في الأرض مرة
ومرتين ...

وديمتري يستعمل كراسي مريحة بينما هم يصرون على هذه الدكك
التربة والمقاعد الخشبية ذات القش المجدولة ضفائره الخضراء والبيضاء
ولكن المهم فوق هذا أن ديمتري يقدم لزبائنه أنواع الخمور
وبطبخ لهم دون غيره أكلا نظيفاً يتناولونه في الظهر والعشاء .
وليس هناك من قهوة غيرها يجد فيها الزبون (فيشا) للعب
البوكر مع الاستعداد المطلوب من ورق أحمر وأزرق يتبادلها كلما
تأثر الورق بالاستعمال أو كلما أراد تغيير مجرى حظه .

لكل هذه المميزات أوجدت (قهوة ديمتري) لنفسها مركزاً
يكاد يكون شبيهاً بالرسمي لأن موظفي البلد لا يجلسون لأنفسهم متدياً
يقتلون فيه الوقت في النهار وجانب من الليل ويكون في الوقت نفسه

لأنهم سوى (قهوة ديمتري) فقد نجد حضرة العمدة ينصت لشكاوى الناس وهو في مقعده المعتاد بالقهوة، وترى وجوها لا تألفها إلا من وراء مكاتب وأكوام الورق واللوحيات بل تسمع نفس الحديث الذى يدور بين الموظفين في محل عملهم وهو لا يخرج عن ترديد أخبار العلاوات والتنقلات وآخر أخبار فضائح الأصدقاء .

إذن هي في الواقع محل مختار للموظفين يمثل أوقات راحتهم وسرهم كما يمثل الديوان وقت عملهم ...

فحضرة العمدة في عمامته التي تغطي نصف جبهته وبطنه البارز وعينيه الضعيفتين ينظر إلى كاتبه في جلبابه وقلمه الموضوع بجانب أذنه ويقول له دون أن يدير رأسه (لما يعوزني حد أنا في قهوة ديمتري)

وإذا وصلت لمعاون البوليس إشارة تلفونية فإن عسكري المراسلة لا يجهد نفسه في البحث عنه بل يتجه إلى قهوة ديمتري فيلقاه مجتمعاً بأصدقائه حول زجاجة جمعه وأطباق المزة. فإذا تقدم إليه بالرسالة قطب معاون جيئته واستعاذ بالله ثم خطفها منه حانقا . فإذا قرأها ودها إليه قائلا في لهجة ملؤها الاستهتار (طيب روح .. بكرة) ١ .

وإذا انتقل إلى البلد موظف أعزب لا عنا وظيفته التي تجعله لا يتوطن في مكان واحد وتجبره على تغيير أصدقاء واصطناع آخرين مرة بعد أخرى ، مشغولا مثقلا في إعداد مسكنه الحديد وترتيب فراشه وقد تملكته حيرة ليست بالهينة ، كيف يجد لنفسه أكلا يسد به عن نفسه غائلة الجوع وهو لا يستطيع أن (يسلق بيضتين) كفاه إخوانه

الموظفون مؤونة هذا الجهد وقالوا له (عند ديمتري) ، فيذهب وقد يجلس في مقعد للموظف الذى حل محله بالضبط وبذلك يكون زبائن الخواجة ديمتري وظائف لأشخاص ، فيهم مثلاً معاون الإدارة ومعاون البوليس ، وطبيب المركز ومساعد مهندس الري . ولا يهمه بعد ذلك إذا كان أحدهم زكى أفندى أو عمر أفندى .

ويجد زبائن ديمتري عنده لأنفسهم حرية أوسع مما يلقاها القاهري مثلاً في قهوته المعتادة ، حيث لا مجال هناك للتعرف بكل من يرتاد القهوة مثله . ولعل هذا راجع إلى أن قهوة ديمتري صغيرة الحجم عدد زبائنها قليل ، بل وتربطهم معرفة خارجية مستقلة عنها . ولذلك نجد أحدهم لا يتحرج إذا كان بمقعده في جوار الباب أن يحدث شخصاً في آخر القهوة بصوت مرتفع يسمعه كل الحاضرين .

ويرتقى ديمتري عن أن يكون (جرسونا) بسيطاً كأي جرسون آخر في مصر ، ويصبح ندماً لزبائنه يهزمون بلهجته الرومية وبجناسيته تعصبا للأتراك ، ثم لا يتحرجون من أن يودعوه بعض أسرارهم ، وأن يقترض أحدهم منه إذا خسر (صولده) بأجمعه في لعب البوكر إذا عثر به حظه .

إذن علمت بعد هذا كيف يستطيع ديمتري أن يجد رزقه في البلد . إن الأهالي كالطفل يبلل النقود في دمية يلهو بها ويتحكم في حركاتها ويظهر قوة ساعده واستبداد ارادته بتهميش رأسها . كذلك هم في حاجة إلى شخص يهزمون به ولا يستطيع أن يهزأ بهم فتشعر

أنفسهم بأنها تتمتع فعلا بالميزات الخليفة بجنسيتها والخاصة بطبقها
الإجتماعية

تقع قهوة ديمتري التي سأتخذها نموذجا لهذه القهاوى المتشابهة
في بلد صغير من بلاد مديرية الغربية يضمها النيل إلى صدره الرحيب
غير حاقده على هؤلاء الناس الذين يشقون لخته ويمتطون ظهره بفلكهم سعياً
إلى الأسواق في المدن والقرى. ويغسلون أجسادهم ويزيلون صدأهم
ثم بعد ذلك يهملون عبادته التي طالما ألفها من أجدادهم الأقدمين .
وديمتري طبعاً رجل يوناني لا ندرى متى جاء إلى مصر أو لماذا
اختار هذا البلد دون سواه ، والظاهر أن هؤلاء الناس قدرة
على التشبث بمكانهم في بلاد غربتهم لا يرحلون .

وهو رجل طيب القلب ، غير كبير المطامع به شيء من الغباوة
الممزوجة بطيبة ، لا يزال رغم إقامته الطويلة في مصر ينطق بكلماته
في لهجة رومية ، فإذا أنصت له زبائنه استغرقوا في الضحك وطلبوا
منه إعادة بعض كلمات يستعصى عليه نطقها ...

وديمتري قد أقبل على الشيخوخة فثقلت حركاته وقل نشاطه ،
ولذلك فإن زوجته تساعد في أعمال لا تنتقل بين الزبائن بل تظل
مختفية وراء الستار الخشبي منهكة في إعداد (المتريو والميوليحي)
فإذا مال ديمتري على الجالس يسأله ما طلبه أجابه (واحد متريو)
فإنه ينادى بهذه الكلمة بصوت هادئ وبلهجة تختلف عن لهجات
هؤلاء الجرسونات الذين يصرخون بطلبات الجالس بكلمات يونانية

طويلة ذات وقع رنان ... أما ديمتري فإدام ينادى زوجته فما حاجته
للصريح والأمر ؟ هو يكلمها كأنهما في منزلهما كما يحدث الزوج
زوجته في شئونهما الخاصة .

إذا أقبل (المغرب) تبتدىء الزبائن في الاتجاه لقهوة ديمتري
وأول من يبكر في الذهاب حضرة العمدة هربا من الانصتات لشكاوى
النساء وقضايا مضاربتهن . وكل واحدة تحلف برأسه وتهتم بتقيل
رأس غريمتهما ...

إذا رآه ديمتري لم يسأله ما طلبه . بل ينطق بلفظ رومى في لهجته
المملوءة بالطيبة ثم يعود بعد هنية حاملا (شيشة) بللورية يلدخ
منها العمدة فيتوه في أفكاره وهو ينصت لقرقرة الماء ثم ينفث
الدخان من فمه ويحدث في صحابه شاعرا أنه يزيج بذلك عن صدره
عبثا ثقيلًا

ثم يتلوه معاون الإدارة فيتحى ناحية سرعان ما يجتمع فيها معاون
البوليس وطبيب المركز الذى يطلب عشاءه مبكرا ولا يرضى بغير
(البيض المقل) وقليل من اللبن . (وإلا فما قيمة نصائحه لجميع مرضاه
— اتعش عشا خفيف ! قاهم !) — ثم يأتى حسن أفندى مكاتب إحدى
الجرائد ينصيد أخبار الموالد والأفراح والمآتم ثم يقبل حسن سلامة .

وحسن سلامة وجل متوسط القامة قد بكرت ناصيته — التى لا
يحجبها طربوشه المائل إلى الوراء فوق قمة رأسه — فى المشيب . وله

عينان (عسلينان) تبعثان إليك معاني كثيرة من الطيبة وهدوء النفس يعكوه في بعض الأحوال . ألم ظاهر إذا ضاقت به الحالة المالية . فهو يتاجر في الملابس الداخلية . ثم يقوم بالجمهور الموظفين والأهالي بقضاء جميع حاجاتهم التي لا توجد إلا في طنطا والأسكندرية ، فيسافر لأحداها كل يوم في مقابل أن يقتضى منهم شيئاً زهيداً فوق الثمن ، ولذا فإن لحسن سلامة اشتراك في السكة الحديد ومن هنا كان معروفاً لدى أهالي البلد بلفظ واحد هو (الأبونية ..) فيسأل أحدهم الآخر (هل رأيت الأبونية ؟) . وهو فوق هذا محبوب لايسبب لنفسه عند أحد الناس كراهية أو ضغينة .

إذا وصل (الأبونية) إلى قهوة (ديمتري) سلم على الجميع بصوت مرتفع فأجابه بتهية باشة وقد يسمع من نواح كثيرة (أهلاً وسهلاً بأبو علي ١)

ولا يستقر به المقام حتى يأتي له الخواجة ديمتري بالورق فيعجل أمامه رجل اعتاد أن يلعب معه كل ليلة . ويتحفظ كلاهما للعب . ودبما نشط بعض الحاضرين إلى مشاركتها في لعبها فينضم لها اثنان آخران مشهوران بمقدرتهما في هذه اللعبة حتى يكون اللاعب (حامياً) والنضال عنيفاً .

يجلس الأربعة حول منضدة في وسط القهوة وتحت (الكلوب) الوحيد بها . ثم يتبدىء سلامة في تقنيط الورق بحركة سريعة تدل على خبرة تامة ثم (يفرقه) أربعة أربعة وهو يمازح من معه .

وفي أول الأمر يجذب (الأبونية) بعض الحاضرين إلى مشاهدة اللعب فينقلون مقاعدهم - واره و كلهم يتحزبون ضد خصمه، فإذا تقدم اللعب وعلا صوت (الأبونية) من (انزل بالعشرة ... هات الدوه .. ياعين عليك ولد ابن حلال ... بصرة .) جذب معظم الحاضرين بالقهوة حتى تصبح بجلاسها متركزة على شخصية (الأبونية) الذي يقود أبصار الحاضرين . وهم يتتبعون بشوق وشغف حركات إنسان عينية في دهشته العصبية وقد أخذته حدة اللعب وتدور على شفاهم ابتسامة خفيفة لا يتتبعون لها ولا تفارقهم طول الوقت ويختفى عندئذ لدى كل شخص متاعبه وآلامه .

بل وآماله وتنحصر حياته في الوقت الراهن يقضيه في اللذة ونسيان . إذا ساعد الحظ (الأبونية) انقلب بالتأنيب والتبكيت على خصمه مكبلا له الاستهزاء والاحتقار (انت تعرف تلعب . مين اللى علمك . روح اتعلم ياشيخ .. ما بقاش الا نلاعب عيال ..) وألفاظ الاستهزاء هذه ضرورية في لعب الشرقيين كالتواابل في طعامهم لا يحلو لهم بلونها ..

وأنت إذا دخلت إحدى المتدييات الكبرى بالقاهرة مثلا . وجلت معارك كبرى تدور داخلها في صفيين من الناس يجلس أحدهما قبال الآخر .. يلعبان (الطاولة) فكأن بينها خصومة شديدة لا يكتفون بضجيجهم بل تحتم عليهم أصول اللعبة (أن ينقلوا الحجر) بقوة . وقد تجد أحدهم يرفع ذراعه إلى أعلى ثم يضع الحجر في مكانه كأنه يلقى

مساراً . وإذا سرت بجانب صف منها سمعت ألفاظ الاستهزاء من واحد ووجدت وجوماً من آخر بحسب ما إذا كان غالباً أو مغلوباً .

يظل (الأبونية) في مرحه ونشاطه وهو يكيل الاستهزاء لخصمه حتى يجد نفسه فجأة أمام (الأرض) وقد أقي عليه الدور في اللعب وليس في يده إلا ورقتان سبعة وعشرة... عند ذلك يترى وينقل إحدى الورقتين مكان الأخرى عدة مرات ويكد ذهنه ليتذكر كم ورقة من العشرات أو السبعات (نزلت) في الأرض .

ويرتعش إنسان عينيه في رعشة عصبية حائرة ويأخذه الهجوم ويقلب نظره في وجوه الحاضرين كأنه يستطلع في نظرهم قلره المحترق .. سبعة أو عشرة ؟ هذه هي المعضلة الهائلة التي يروح تحتها فكر (الأبونية) . ولا شك أن دقات قلبه تزداد وأن الدم يتصاعد إلى رأسه مندفعاً ... ذلك لأنه لا يلعب لقضاء الوقت بل إشباعاً لشهوة التغلب على الغير . ثم هو لا يرضى لنفسه بالإنهزام بعد أن طبقت شهرته أرجاء البلد . ولا يقبل أن يلور الحديث في القهوة يومين متتاليين بل ذكر هزيمته المنكرة

وبحركة وجلة مستريية يضع (الأبونية) السبعة على المنضدة ، وعندما يقفز خصمه من مقعده ويقبل ورقة في يده بصوت مرتفع ثم يلقيها على المنضدة قائلاً (بصره !) فينقلب الموقف . يصمت الأبونية ويصفر وجهه وتقل قيمة ألعابه من الوجهة الفنية تحت تأثير الإنهزام ويبتدىء خصمه في إسماعه التبكيت

والاستهزاء قائلا (فالح جدا ومشطر من الصبح
أبوه أستنى لما تغلب .. العب العب واحنا نشوف !!)

و (أبو على) يعد رجلا طيبا مجدا في عمله لا يعرف رياضة واحدة
ولو أن أحدا من الناس قال له : « إنك لا تتراض كل ليلة بلعب
(الورق) .. لما صدقه ، ولكن هذه رياضة تفيده فتجدد دمه وتنسيه
همومه وتريح عقله وهو يقضى ، إذا كان مستريح البال والحظ ،
وقتا طويلا في اللعب وقد يلعب حسن سلامة عشر (عشرات) في
ليلة واحدة يخرج منها كلها غالبا لجميع المتطوعين لمقارعة !

يصل بائع الجرائد فتتلقفها الأيدي ، وهناك زبائن خاصة لها
غرام شديد في قراءة الجرائد وكل كلمه فيها ، فإذا قرأ أحدهم في
جريدته أمسك بتلابيب زميل له سىء الحظ فيسرد عليه كل الأخبار
التي قرأها مع أن هذا الزميل البائس يكون قرأها مثله وعلم بها ولا
حاجة لديه في الاستماع لها . ولكنه لا يجد مخرجا من هذا الموقف الحرج
سوى أن يسرد لغريمه بعد أن ينتهى من قصصه وأخباره كل المعلومات
التي نسيها وقد يكرر ما قاله زميله وبذلك يكيل له بكبله .

وقد يتركان القهوة وجلاسها ويهتمان في حل لغز من الألغاز التي
هى بلاء الجرائد الأسبوعية هذه الأيام . فيقرأ أحدهم (ما هو اسم
ثلاثي يدل على صفة من صفات العظماء ، فإذا قرأته مقلوبا فهو من
مستلزمات الطعام)

فيخرج من جيبه قلماً رصاصاً - وهؤلاء الناس يحرسون على أقلامهم استعداداً لطوارئ الألغاز ١ وعلى هامش الجريدة يكتب (١ - ٢ - ٣) ثم يترى قليلاً ويقول - قبل تبقى لن ... فيكتب تحت الأرقام (ن . ب . ل . ا) .

ثم يستمر (ثانيه وأوله وثالثه فعل بمعنى أرى بسرعة) فيقول (نبل ٩) ويكرر ما حسب الأوزان المختلفة تارة بالضم وأخرى بالجرم فلا تنفع معه . فينتقل إلى ناحية أخرى من هامش الجريدة ويعاود كتابة الأرقام من جديد ويكتب (ش . ر . ف) ويقول (شرف) وهو في انهماكه نسي أن زميله يكذ ذهنة بدورها في اكتشاف هذا اللغز ويكون الحظ قد ساعده فيمسك ذراع الآخر وبصوت يكاد يبع يقول (آه ! حلم يتي ملح وملح ...) ثم يرمى القلم ويربع طربوشه عن رأسه ويميل في مقعده بينما يقلب زميله في صحائف الجريدة محاولاً بذلك إخفاء غيبته وقد امتلكه سرور وخيلاء وشعور بلذة الانتصار ..

(جريدة السياسة ١٩٢٦/١٢/٢٢ ص ٢)

عن المجنون؟

نشأ محسن أفندي بن عبد المطلب بين عائلة شهيرة بذكاء أفرادها
وحدة أذهانهم - وفي الوقت نفسه - بقصر أعمارهم ، فهم لا يتجاوزون
تمام العقد الثالث حتى تلدوب أجسادهم فجأة تحت تأثير خفي وبغير
مرض معروف .

وكان يعيش وحيدا مع أمه العجوز ومعمدا على إيراد صغير
يمكنه - في جهده وتقتير - من الاستمرار في دراسته بمدرسة الهندسة
ومحسن شاب قارب الخامسة والعشرين طويل القامة ، ضامر
البطن له حبة مرتفعة فوقها شعر يضرب إلى الصفرة طويل الأنف
دقيقها .

أما عيناه فواسعتان ، شديدة السواد والبريق لهما حركة سريعة تنبعث منهما كهرباء غريبة . وقد تختلج عينه في بعض الأوقات إختلاجاً عصبياً . وهذا في أوقات غضبه وعندما تملكه حيرة تضايقه ولعله كان أكثر فرد في عائلته ذكاء ، وأشدهم توقفاً فهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، شهي الحديث ، يعلم عنه كل زملائه مهارته في حل المسائل العويصة التي تستعصى عليهم ، دون أن يكدر ذهنه من أجلها أو يتعمق في التفكير . إذا رأيته لم تلبث أن تعترف بأن هناك قوة خفية توزع المواهب والعقول . وأن الشخص يولد فلما يجد نفسه معلق الذهن أو شعلة من بين نار وليس هو — على الحالتين — الذي أدار المفتاح أو ألهم الكبريت ، وليس في مقدوره أن يفتح سجنه أو يطلق ذكاه .

. . . .

بعد أن قال محسن شهادته بتفوق عين في وظيفة بدمياط . وعندما حل بها وجد نفسه غريباً لا يعرف أحداً . ولكن سرعان ما التفت حوله القلوب فكثرت أصدقاؤه وإن بقي له شعوره بأنه لم يخلق ليعيش بدمياط وأن موطنه القاهرة ولا يرضى بغيرها بدلاً .

وعندما أقبل شتاء دمياط برده القارس وأمطاره الغزيرة ، لم يقو جسم محسن على تحمل رطوبة الجو . فأصيب بحمى التيفوس فأقعده الفراش وقتاً طويلاً انتابه فيه هذيان وغيبوبة طويلة ولكن شبابه تغلب على المرض فقام . فإذا هو شخص آخر غير ما كان . إذ قام نحيفاً مهزولاً يكاد ينكئ إذا سار من شدة ضعفه . وترنح وركبته

وترتعش بداه . وسواد عينيه ينطق . فأصبحنا غائرين وبجفت شفثاه
واصفر وجهه وانطبق شدقاه

وأصبح محسن — رغم أنه كان يسترد قواه شيئا فشيئا — شخصا
سريع الملل لا يقوى على الانصات لحديث يطول وتفزع أقل ضجة
وتثير غضبه وتأفقه

وكثيرا ما أطال التحديق في الجو وهو تائه الذهن مشرده ثم
ينفض ويتأوه بأمة يودعها تأفقه وتبرمه من الحياة .. ثم يصبح فجأة —
وبدون سبب واضح — شخصا ثرثارا كثير الضحك مرتفع الصوت
على الضحكات .

ولعل أغرب ظاهرة بدت فيه أنه كان إذا تحدث ينتقل من
موضوع إلى آخر دون ترابط أو سبب ودون أن يشعر هو بهذا
الانتقال .

وأخلت هذه العوارض تزداد حدة حتى خطر لإخوانه الموظفين
خاطر كتموه ولم يستطيعوا التصريح به لحبهم له وإشفاقهم عليه
وأملا منهم أن يزول ما به بعد أن يسترد قواه وعافيته .

ولكن محسن نظرف في أعماله وأصبحت له تصرفات شاذة .

إذ لما أتى وقت مساحة الأرض — وكان الزمن صيفا — رأى أنه من
السخف أن يشتغل بالنهار في هذا الحر الشديد ، وعزم على أن يكون
عمله بالليل — فكان إذا أتى قرية أمر أهلها فخرج له كل من يملك

فانوسا وساروا معه وهو يمتطى صهوة حماره يغنى تارة ثم يخطب فيهم تارة أخرى .

ودعى مرة إلى الشهادة أمام المحكمة في حادثة قتل وقعت أمامه فرأى الجمهور يدفعه بالمناكب فوقف قبالة القضاة وأمام الحامين يسألونه أسئلة بدت له تافهة فتضايق وقطب جبينه . وأكد للمحكمة أنه رأى القاتل يضرب ، ولشد ما كانت دهشته عندما سمع القاضي ينطق بالبراءة . وعلم بعد ذلك أن القرار بنى على أن (حيث أنه لم يقيم على التهمة دليل راجح فأقوال الشاهد الأول (وهو محسن) متضاربة مضطربة وتعارضت مع أقوال الشاهد الثاني ولذلك عندما أوى إلى منزله لم ينم وفكر طويلا في هذه الحالة السيئة . وفي الصباح كان قد أتم خطابا مكونا من عشرين صفحة أوله (تقرير مرفوع من محسن عبد المطلب إلى معالي وزير الحقانية بمشروع تعديل نصوص قانون العقوبات) وكان مما فكر فيه أن تكون الجلسات كلها سرية لأن الجمهور يحدث ضجة تشوش على القضاة وتثير أعصابهم دون أن يشعروا وتجعل أحكامهم مضطربة من تأثير الجو المملوء بالاضجيج الذي يعيشون فيه وأن يمنع المحامون من عملهم لأنهم يقلبون الحقائق بالفاظهم وخطبهم الفارغة . وأن القضية إذا كان بها محام فلا بد أن يحترس القاضي منه ويراقبه ليعلم محاولاته في التغرير به

وبعد أسبوع واحد إذ هو يمر في بعض الأراضي المملوكة لوزارة الزراعة والأوقاف رأى النبات مريضا والاهمال ضاربا أطنابه فكاد

عسك بتلايبب أحد الفلاحين يضربه . وسهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أمم (تقرير مرفوع من ... إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بشأن إلغاء وزارتي الزراعة والأوقاف وإضافة عملهما إلى وزارة الحربية) .

وكتب (مذكرة ابضاحيه) قال فيها أن في مظاهر الدولة المصرية متناقضات كثيرة . والجيش المصرى كافة من جنود وضباط لاعمل له لأن الغرض من الجيش الحرب ، وحيث أننا لن نحارب أحدا فلا لزوم للجيش ولا يبقى بعد ذلك مبرر لوجودهم وصرف مرتباتهم الطائلة وأكلهم مجاناً من خزينة الدولة ، ولذلك فإنه يجب تشغيلهم في الأراضي البور وأراضي وزارتي الأوقاف والزراعة .

وقال في فوائد هذا المشروع إن العزبة القلدة ستصبح معسكراً نظيفاً وأن الخولى سيكون يوز باشى أنيقاً ، وتنقلب المدافع بسهولة إلى محاريث ، وتصدر الأوامر إلى الفلاحين بالبورى من الخولى . وبذلك يسير العمل بانتظام ولا يهمل الفلاحون من الجنود في عملهم لأن القانون العسكرى يطبق عليهم .

وعلى ذلك كانت المادة الأولى في القانون هي :

المادة الأولى . تهدم جميع العزب الكائنة في مصر سواء بالوجه البحرى أو القبلى لقلدارتها وقلة الضوء فيها وكثرة البق والبراغيث ، وتهدم جميع التكنات العسكرية في العاصمة والمدن وتنقل الحجارة والدبش

إلى أراضي وزارتي الزراعة والأوقاف ويبنى في كل ألف فدان ثكنة واحدة . . .

المادة الثانية - يلغى القانون العسكري الحالي ويستعاض عن جرائم التسليم للعدو والإهمال بحسن الضبط والربط بجرائم التأخير في الحرق والري والإهمال في تنقية الدودة . .

المادة الثالثة - يكون في كل ثكنة برج عال يقف فيه اليوزباشي الخولي ليصدر أوامره بالبورى إلى جماعة الجنود المنتشرين بالأرض . .
ثم لما رأى أنه صاحب مشروعين كبيرين قرر أنه يتم اقتراحاته فمهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أتم « تقرير مرفوع إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بإلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها إلى وزارة المعارف »

وملخص اقتراحه أنه يجب على كل رجل أعزب ، أو امرأة عزباء أن تقدم إقرارا بذلك إلى وزارة المعارف التي تعقد في كل ستة شهور امتحانا للذكور وآخر للنساء فإذا ظهرت النتيجة أجب الأول في الناجحين على تزوج الأولى من الناجحات والثاني من الثانية وهكذا . .

وقال إن من فوائد هذا المشروع القضاء الأخير على طائفة (الخاطبات) وأن الحظ سيخرج بتانا عن الزواج الذي يجب أن نصونه عن التلاعب الحاصل الآن . وأن الزواج سيتم بين القرناء ولا يغيب أحد في نصيبه فتقل الشكوى ، وينتج نسل منتظم يعتمد على وراثة صحيحة .

ولكنه بعد قليل لاحظ أن مشروعه ناقص فأرسل إلى رئيس الوزراء
مخطاب يكمل النقص وأخبره أن يميز عقد ملحق للمعاقطين . وأن
الذين يسقطون في الملحق يوضعون تحت المراقبة ولا يسمح
لهم بالسهر بعد الساعة مساء (هذه هي الطائفة التي يجب على الحكومة
مراقبتها لأنها هي التي تعيش فساداً في المنازل وتحرض النساء على القصور
وليست هي طائفة المنتشرين الذين تهتم بهم الحكومة على حقارة
شأنهم وتفاهة قيمتهم فتسخر لهم العمد والبوليس ليراقبوه في
حركاتهم وسكناتهم)

وأخيراً كاد محسن أن ينقطع عن عمله . وسر لتغيبه هذا جميع
الموظفين لأنهم وإن كانوا يشعرون عليه فإنهم أصبحوا يخافونه ويرتعبون
من نظراته وحركاته . وكل الناس ترتعب من المحنون ولو كان أهلاً
الناس وأطيبهم قلباً .

وكان محسن يمتطي جواداً له ويسير في الأطلان ، وسواء ما كان
مملوكاً منها للحكومة أو للأفراد ، ويأمر الفلاحين الذين أصبحوا
لا يهتمون به ولا بأوامره بأن يعتنوا بالأرض ، وكان من تأثير ذلك
أنه أصبح يعتقد أنه هو المالك لهذه الأرض الشاسعة بل أنه يمتاز على
هذا المالك المتغيب بالقاهرة والذي لا يرى أملاكه إلا مرة واحدة في
عمره ، بل بماذا يفترق هو عن المالك ؟ إنه يتمتع نفسه بهواء الأرض
ويسير فيها ويتعهدا وكل شخص يستطيع أن يكون أكبر مالك
في العالم إذا ارتفع عن سخافات الناس وترهاتهم في اغتصاب الأرض

ورأى أن الأرض كلها إنما خلقت ليمتع بها . وكل شخص يستطيع أن يتمتع بها ولا يمنع من ذلك قانون سخيـف ورثناه عن جدودنا السارقين المغتصبين ...

ثم تملكه قلق شديد . ماذا يفعل بهذه الأطنان كلها ؟ .. وأخيرا قرر أن يهبها إلى طلبة مدرسة الهندسة لأنهم أحق الناس بتفهم مقاييس الأرض واتساعها . فكتب خطابا إلى ناظر المدرسة يخبره فيه بأنه عزم على أن يهب المدرسة كل أطنانه (البالغ قدرها ألف فدان بما فيها من المنازل والعزب والمخازن والاصطبلات والأجران والمحاريث والظلميات والمواشى من كافة أصنافها)

ولم ينتظر ردآ . وبعد أسبوع واحد خطرت له هذه الفكرة من جديد لأنه نسى كتابة الخطاب الأول ونسى أنه فكر فيها من قبل . والغريب أن خطابه الثاني كان صورة تنطبق على خطابه الأول . كلمة أمام كلمة . وسطرأ بسطر .

وكان بعد ذلك يرسل في كل أسبوع خطابا بهذا المعنى إلى ناظر المدرسة .

— — —

لم يبق أمل في شفائه . ولم يبق أمام رؤسائه إلا أن يخبروا الوزارة في القاهرة فصرحت له بإجازة مرضية طويلة ، ، وأشارت بإرساله إلى مستشفى المجاذيب (بالأورليك نمرة ...) ولما كلف رئيسه أحد

الموظفين بتبليغه هذا القرار امتنع ، وأبى كل موظف آخر أن يفتح
عسن في هذا الموضوع ... من يجرؤ أن يذكر له سيرة مستشنى
المجاذيب ؟

وأخذ محسن يزداد في (تنكيته) مع الموظفين ويمازحهم ويصحب
كل كلمة بلطمة منه على كتف محدثه ...
وكان قرار الجميع أن تنفيذ أمر الوزارة أصبح لا مفر منه ،
بل يجب أن ينفذ بسرعة ..

وانتهز رئيسه (الذى كان لا يطمئن على نفسه طالما صوت محسن
المرتفع يرن في أذنيه) فرصة غيابه وجمع إخوانه معه وتشاوروا
في الأمر ولبثوا منعقدين ساعات طويلة قرروا بعدها أمراً وخرجوا
وابتسامة صفراء لعينة لا يبعثها إلا الخوف تدور على شفاههم .

وفي اليوم التالى عندما جاء محسن طلبه رئيسه ، فلما دخل عنده أجلسه
على مقعد وقال له (إننى أعلم أنك طيب القلب وتشفق على المساكين
وأنا قررت أن أكلفك بمأمورية دقيقة وأرجو منك أن تكتمها ولا
تذكرها لأحد كان !

هذه المأمورية هى أن زميلك المسكين داود أفندى أصيب بنوع
من الهستريا . وقد كلفتنا الوزارة أن نرسله إلى مصر حتى يتسلمه
مستشنى المجاذيب . ولكنى رأيت من عدم اللوق أن نفتح في الموضوع
صراحة وعزمت على أن أرجو منك لأجل خاطره وصداقتك له -
أن تصحبه معك إلى مصر وفي اللحظة ستجد عمال المستشنى في انتظاره ..)

فقطب محسن - وسعل سعالاً خفيفاً وظهر التردد في نظره
فاحتلجت عينه ثم طفق يسأل رئيسه (وكانت يد الرئيس ترتعش
أسئلة كثيرة .

— لم ألاحظ على داود أفندي شيئاً ؟

— هل جنونه هادئ ؟

— وماذا أفعل لو هاج مني في الطريق ؟

ثم أصابه نوع من الذهول وكأنه يذكر أموراً بعيدة في الماضي
وهذا ما كان يلور في ذهنه فعلاً فإنه أخذ يجهد نفسه في تذكر حوادث
حصلت من داود أفندي . فتذكر أنه ذات يوم أوقف عمله وارتبك
وسأل جميع الموظفين عن نظارته مع أنها فوق أنفه وعند ذلك وضع
محسن ذراعه على حافة مكتب رئيسه وأسند رأسه عليها واندفع في
ضحكة عالية طويلة .. وكان الرئيس يرتعش وكاد يخرج من الغرفة
لأن أصابعه اضطربت فجأة لدى سماعه هذه الضحكة .

ولما عاد محسن إلى مقعده ظهر الجهد ومظاهر الاهتمام على وجهه
وحركاته . فكانت أوامره (للحاجب) مملوءة قسوة وشدّة .
وأكثر من تعهد ربطته رقبته وطربوشه . ثم يرسل نظرات جانبية
طويلة وتلمع عيناه بها ، إلى حيث يجلس داود أفندي . وأخذ يراقبه
كيف يحرك رجله حركات صغيرة كمن يضبط نغماً موسيقياً يغنيه
سراً . ثم انتقل بجانبه فجأة ووضع يده على كتفه وقال له في لهجة
مملوءة بالطيبة .

— هل تحضر معى للفسحة بمصر ؟

— لماذا ؟ وما دخلك أنت فى ذلك ؟

فقال محسن وقد ظهر على وجهه المجهود الذى يبذله ليتقن (بلغه) وهو مجهود من يدارى عن الجنون اعتقاد محدثه فى جنونه. وهو ليس بالأمر السهل الهين فى نظر محسن .

— لا لشيء سوى أننى أعلم أنك لم تزر مصر منذ مدة طويلة وأننى مسافر هناك فأحببت أن نكون سويا ، فلماذا تغضب !

فزجر داود أفندى ونظر له ثم قال :

— حسن .. ومتى ترغب أن تسافر ؟

— إذا أردت فالآن حالا .

نهض داود معه . فوضع محسن ذراعه فى ذراعه كجندى يقود مجرما وقبل أن يخرج من الغرفة أدار رأسه لباتى الموظفين ونظر لهم نظرة ثم عن شدة فرحه بانتصاره وسروره باتقان الحيلة وذكائه ومهارته.

— — —

جلسا ، أحدهما قبال الآخر فى القطار . لا تفارق نظرة محسن الدقيقة اللامعة حركات داود . فهو متنبه لأقل حركة تبلى منه . حاول داود أن ينظر من النافذة فمنعه محسن بقوله .

كن عاقلا معى ولا تنظر من النافذة . !

ثم تذكر أنه ارتكب بقوله هذا غلطة كبرى وأنب نفسه وراح يشرح لداود معنى كلمته من أنه من المجازفة أن ينظر المرء أثناء سير

القطار من النافذة ثم انزوى محسن في ركن المقعد آسفا مغضبا من نفسه وهو يقول سرا : لن يجد أمامه شخصا غيرى يسوق جنونه عليه ...)

كان داود أفندى رجلا طيبا . رضى أن يلعب هذا الدور مع محسن لحبه إياه . ولكنه رغم تألمه الشديد لموقفه هذا كان يكتم ضحكات كثيرة ويحاذر ألا يلتقى نظره بنظر محسن حتى لا يتلمس به معاني السخط والاحقار لأنه يلهو به ويلعب به كما يلعب الرجل بالطفل الصغير . في حين أن محسن كان يعتقد أن داود يهرب بنظراته لأنه خائف منه وأن هذا الخوف دليل على جنونه .

وصل القطار إلى المحطة فقام محسن نشطا مسرورا لأن مأموريته انتهت بسلام وأسرع إلى القبض على ذراع داود قائلا له (الزحام شديد فلنكن شويا) ثم نزلا . فرأى محسن وجوها كثيبة تنظر إليه ومدت نحوه عشر أيد قوية وقبض عليه بينما كان داود مطلق السراح .. في هذه اللحظة فقد محسن منطقه — ان كان له منطق وكادت رأسه تذهب تحت تأثير فكرة واحدة (هل هؤلاء الناس كلهم مجانين فيقبضون على أنا ؟)

ولكنه أخذ يصرخ فجأة (المجنون أهو المجنون أهو ، مش أنا !) فكان هذا أكبر دليل لدى جمهور المتفرجين وموظفى المستشفى على جنونه . ثم ألغوه في عربة وسارت به وهو مقيد بيكى غيظا وحنقا ويصرخ (يا مجانين يا مجانين ! !) .

(جريدة السياسة ، ١٤/١/١٩٢٧ ص ٢) .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١٣	البوسطجى
٧٧	قصة فى سسجن
١٠١	أبو فودة
١٣٧	حياة لص (★)
١٤٩	قهوة ديمترى (★)
١٦٣	من المجنون ؟ (★)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١٤٠٥

I.S.B.N 977-01-3632-8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش

To: www.al-mostafa.com